مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (2)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (2) 2010

شعرُ المَدِيح النَّبويِّ عَلَى عَهْدِ بني الأحْمَرِ
نَشأتُه– شعرَاؤه – أنْوَاعُه (635 .897هـ)

الدكتور عيسى إبراهيم فارس*
نبيل سالم سلمان**

(تاريخ الإيداع 28 / 2 / 2010. قبل للنشر في 5 / 5 / 2010)

□ ملخّص □

مُذ دخول محمَّدٍ بنِ يوسف بن نصر{الملقَّبِ بالأحمرِ} مَدِينة غرناطة ، مع مَغيبِ شمسِ يومٍ من أيَّام رمضان الأخير سنة 635هـ {إبريل 1238م} بعدَ أنْ بعثَ إليه الملأُ من أهلِهَا ، مُرتدياً ثِيَاباً خشنةً وَحلَّةً مُرقَّعةً ، ونُودِي بهِ مَلِكاً ، مُتَّخذاً منهَا عاصمةً لمملكته الوليدةِ ، وَجُلُّ تَفكيرِهِ يدورُ حولَ كيفيةِ الاحتفاظِ بالعرشِ والذَّودِ عنه ، فَاعتنقَ سياسةً ، تتمثَّلُ في إظهَارِ الشُّجاعةِ ومُداراة المَغلُوب، وَرَاحَ يجعلُ منها وَاقعاً مَلموساً ، فضلاً عن معرفِتهِ بالدَّورِ المُهمِّ الَّذي يلعبُهُ الفِكرُ في الحِفَاظِ على المَملكةِ ، فتيةً قويَّةً.

فَشهدَتْ مَملكةُ غرنَاطة نشَاطاً ملحوظاً في مَجَالي الشِّعرِ وَالكتابةِ ، سَاعدَ على نموهِمَا وَنضجهمَا سَلاطينُ البيتِ النَّصريّ ، فَقَد اشتَهرَ عميدُهُم وَمؤسسُ دولتِهم بحمايةِ العلمِ وَالأدبِ ، وكانتْ لهُ أيَّامٌ خاصَّةٌ يستقبلُ فيها الشُّعراءَ ، فينشدونَهُ قصَائدِهم ، فَينَالُ ، كلٌّ حسبَ قولهِ.

وإنَّ قراءةً دقيقةً لموضوعاتِ القصيدةِ الأنْدَلُسيَّة عَلَى عهد بني الأحمرِ تُظهرُ أنَّ الدِّينَ يمثِّلُ قضيَّةً محوريَّةً كُبرى، مِن قضَايا الشَّاعرِ الغرنَاطيِّ، فَهُوَ يَتنَاولُه منْ خلالِ المَدَائح النَّبويَّةِ ، وَالتَّصَوُّفِ ، وَالزُّهدِ ، وَالتَّوسُّل، وَالمَوْلِدِيَّات ، وكلُّهَا موضوعاتٌ دينيَّةٌ بصورةٍ كليَّةٍ ، أو غالبة .

فَالدِّينُ عَلَى عَهدِ مملكةِ غرناطة ، وَقبله وَبعده ، يدخلُ في قَصَائدِ أخرى أيضاً ، بصورةٍ جزئيَّةٍ ، كَمَا في موضوعاتِ الجهادِ ، وَالاستغاثةِ ، وَالحنينِ إلى الأوْطَانِ ، وَوصفِ الطَّبيعة ، وَالرِّثاءِ ، وَالمدحِ . أمَّا المَدِيح النَّبويُّ فمثِّلَ ظاهرةً شعريَّةً مهمَّةً ، في مَرحلةٍ مهمَّةٍ ، من مَرَاحِلِ بدَايةِ النِّهاية للدَّولةِ الإسلاميَّةِ في الأنْدَلُسِ.

الكلمات المفتاحية: المَدِيحُ النَّبويُّ ، الشَّوق ، المولديات ، البديعيَّات ، المولد النَّبويُّ .

* أستاذُ الأدب الأندلسيِّ المساعد– قسم اللُّغة العربيَّة–كلِّية الآداب – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.
** طالب دراسات عليا (دكتوراه)– قسم اللُّغة العربيَّة–كلِّية الآداب – جامعة تشرين– اللاذقية – سورية.

مجلة جامعة تشرين للبحوث والدراسات العلمية _ سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية المجلد (32) العدد (2)2010
Tishreen University Journal for Research and Scientific Studies - Arts and Humanities Series Vol. (32) No. (2) 2010

Prophetical Commendatory poetry from Bani Al-Ahmar epoch (Its emergence, poets and types) (635-897 E)

Dr. Issa Ibrahim Fares*
Nabil Salem Salman **

(Received 11 / 11 / 2010. Accepted 9 / 5 / 2010)

□ ABSTRACT □

Mohammad Bin Yusuf (entitled Al-Ahmar) had entered Granada city, in the sunset of the last day of Ramadan, on 635Exodus (April 1238 A. C.) and after the most of its populationcame to him to declare him a king (in spite of his tough and patchy clothes), he considered it, as a capital of his new kingdom . So, since that time, his most preoccupations were about how to maintain and protect the throne.

However, he adopted a policy represented by exposing his bravery, taking care and consoling the unjustly-treated people, as it became a reality. He also knew the important role played by thoughtto maintain the kingdom powerful and young. Granada Kingdom showed a remarkable activity in both fields of poetry and prose.Their development and growth were helped byBeit Al-Nasri Sultans which is very well known that their chief, who established their state, protected science and literature, and also, assigned special days for receiving poets, who read their poems, and were rewarded by him forthem.

A precise reading of Andalusian poems' objectives fromBani Al-Ahmar epoch will show that the religion represents a crucial subject from Granadianpoets' objectives. As we consider it through Prophetical Commendatory, mystical,ascetical, asking, and birth celebration, all of which are completely or mostly religious subjects.

Keywords : Prophetical Commendatory, longing, birth celebration, fascinating , Prophet birthday.

***associate Professor of Andalusian Literature , Arabic Department , Faculty of Literature , Tishreen University , Lattakia, Syria.**
****postgraduate student, Arabic Department, Faculty of Literature, Tishreen University, Lattakia, Syria.**

مقدَّمة:

المَدِيحُ النَّبويُّ هُوَ ذلك الشِّعرُ الَّذِي يَنْصَبُّ عَلَى مَدْحِ النَّبِيِّﷺ، بِتعدَادِ صِفَاتِهِ الخُلقيَّةِ وَالخَلقيَّةِ ، وَإظهَارِ الشَّوقِ لرؤيته ، وَزِيَارةِ قَبرِهِ ، وَالأمكنةِ المقدَّسةِ الَّتِي ترتبطُ بحياةِ الرَّسولِ ﷺ ، مع ذِكْرِ مُعجزَاتِه المادِّيَّة وَالمعنويَّة ، وَنَظْمِ سيرته شعرًا ، وَالإشادةِ بغزوَاتِه ، وَصفَاتِه المُثْلى ، وَالصَّلاةِ عليهِ ، تقديرًا وتعظيمًا.

وَيُظهرُ الشَّاعرُ المادحُ ، في هذا النَّوعِ من الشِّعرِ الدِّينيِّ ، تَقْصِيرَهُ في أدَاءِ وَاجبَاتِه الدِّينِيَّةِ والدُّنيويَّةِ ، وَيَذكُرُ عيوبَه وَزلاته المشينةَ ، وَكثرةَ ذنوبِهِ في الدُّنيا، مناجيًا الله ، بصدقٍ وَخوفٍ ، مُسْتَعْطفًا إيَّاه، طَالبًا مِنْه التَّوبةَ وَالمغفرةَ .

وَينتقلُ ، بعدَ ذلك، إلى الرَّسُولِ، طَامعًا في وَسَاطتِه وَشفاعتِه يومَ القيامَةِ، وغالبًا ما يَتَدَاخلُ المَدِيحُ النَّبويُّ مع قصَائدِ التَّصَوُّفِ وَقَصَائدِ المَوْلِدِ النَّبويِّ الَّتِي تُسمَّى بِالمَوْلِدِيَّات.

أهمِّيةُ البَحثِ وَأهدَافُهُ:

يُحَاولُ البَحثُ الدُّخولَ إلى عَالمِ قصيدةِ المَدِيح النَّبويِّ في ظلِّ بني الأحمرِ ، بغيةَ قرَاءةِ هذه القَصِيدة بِمَفَاهيم نقديَّةٍ موضوعيَّةٍ ؛ لهدفِ الوقوفِ على مَاهيةِ صُورِ المدحةِ النَّبويَّةِ من جهةٍ ، وَأبعادِهَا المُترَاميةِ الأطرَافِ ، منْ جهةٍ أخرى ؛ لأنَّ وَاقعَ الشِّعرِ الدِّينيِّ في عَصرِ غرناطة كانَ قَدْ بَدَأَ يَأخذُ أبعَاداً وِجدَانيَّةً تمسُّ وجودَ الإنسَانِ المسلمِ، الَّذي هُدِّدَ بِالزَّوَالِ من أرضٍ ، طالَمَا رَامَ لهَا دوامَ الهنا المنشورِ في ربوعِهَا ، والسُّرورِ في أرجَائها ، وَحَضَارةً تُكَابرُ بهَا حضَاراتِ البشرية. كَمَا يُحاولُ البحثُ إضاءةَ شمُوعِ شعرَاءِ بني الأحمرِ عبرَ مدحِهِم النَّبيِّﷺ ، بأنوَاعٍ من الأشْعَارِ الدِّينيَّةِ الفيَّاضَةِ بالحبِّ والإخْلاصِ .

مَنْهَجيةُ البَحْثِ:

يَرتكزُ البَحثُ على درَاسةِ شعرِ المَدِيحِ النَّبويِّ في ظلِّ بني الأحمَرِ ، وَبَيَانِ العوَاملِ الَّتي أثَّرتْ تأثيراً ملحوظاً في إبرَازِ هذا الجَانبِ من الشِّعرِ الأندلسيِّ ، وَذِكْرِ أهمِّ شعرَاءِ المَدِيحِ النَّبويِّ ، وَتعدَادِ أنوَاعِ هذا الشِّعر، مُعْتَمِداً المَنْهجَ الوصفِيَّ ، للوقوفِ على الصُّورةِ الشِّعريَّةِ واتِّجاهَاتِهَا ، في نصُوصٍ مُختَارةٍ من الشِّعرِ الغرنَاطيِّ ، مع الاتِّكَاءِ على المَنهجِ التَّحليليِّ الجمَاليِّ ؛ للوقوفِ على أسرَارِ الإبدَاعِ ، عندَ شُعَرَاءِ مملكةِ غِرْنَاطة ، بِعدِّ القَصِيدة الشِّعريَّةِ نصًّا مُتَكَامِلاً.

شعرُ المَدِيح النَّبويِّ في ظلِّ بني الأحمر(نشأتُه– شُعَرَاؤهُ – أنوَاعُه)

تُعرَّفُ المَدَائح النَّبويَّةُ ، كَمَا يقولُ د.زكي مبارك ، بأنَّها فنٌ (من فنُونِ الشِّعرِ الَّتِي أذاعَهَا التَّصَوُّفُ ، فَهِي لونٌ مِن التَّعبيرِ عَنِ العوَاطفِ الدِّينِيَّةِ ، وَبَابٌ مِنَ الأدَبِ الرَّفيعِ ؛ لأنَّهَا لا تَصْدرُ إلاَّ عَنْ قلُوبٍ مُفْعَمَةٍ بِالصِّدقِ وَالإخْلاصِ)[1].

وَمِنَ المعهودِ أنَّ هذا المَدحَ النَّبويَّ الخَالصَ لا يشبهُ ذلك المدحَ الَّذِي كانَ يسمَّى بالمدحِ التَّكسُّبي، أو مدحِ التَّملقِ ، الموجَّهِ إلى السَّلاطين وَالأمرَاءِ والوزراء، وإنَّما هذا المدحُ خاصٌّ بأفضلِ خَلقِ الله، وَهُوَ مُحَمَّد ﷺ ، يَتَّسِمُ بِالصِّدقِ وَالمحبَّة وَالوفاءِ وَالإخلاصِ وَالتَّضحيةِ ، وَالانغمَاسِ في التَّجربةِ العرفانيَّةِ ، وَالعشقِ الرُّوحانيِّ اللَّدنيِّ.

([1]) د.زكي مبارك: **المَدَائح النَّبويَّة في الأدب العربي** (مكتبة الشَّرق الجديد، ط2، دمشق 1997م) ص 17.

أمَّا المَرْجِعيَّاتُ التَّنَاصيَّةُ ، المُبَاشرةُ وَغيرُ المُبَاشرة ، الَّتِي شكَّلتْ رؤيةَ شعراءِ هذا الفنِّ ، فتَّتضحُ – وَبعدَ قِرَاءةٍ لِقَصَائدِ وَدَوَاوينِ المَدِيحِ النَّبويِّ عبرَ تَعَاقُبِهِ التَّارِيخيِّ وَالفنِّيِّ – في أنَّ الشَّاعرَ كانَ يَسْتَوحِي مادَّته الإبداعيَّةَ وَرؤيتَه الإسلاميَّةَ من القرآنِ الكريمِ أوَّلاً ، فالسِّنةِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ ثانياً ، كَمَا أنَّ هناك مصدرًا مُهمًّا في نسجِ قَصَائدِ المَدِيح النَّبويِّ يتمثَّلُ في كُتبِ التَّفسيرِ، وَالسِّيرةِ النَّبويَّةِ الَّتِي فصَّلتْ حياةَ الرَّسُولِ ﷺ ، تفصيلاً وَاسِعاً .

وأوَّلُ مَا ظهرَ من شعرِ المَدِيحِ النَّبويِّ ما قالَهُ عبدُ المطَّلب إبَّانَ وِلادةِ مُحَمَّدﷺ، إذ شبَّه وِلادتَه بِالنُّورِ وَالإشراقِ الوهَّاجِ الَّذِي أنَارَ الكَونَ.

وَلكنَّ أشعارَ المَدِيح النَّبويِّ تعُودُ إلى بدايةِ الدَّعوةِ الإسلاميَّةِ ، مع قَصيدةِ "طَلَعَ البَدْرُ عَلينَا"، وَقَصَائدِ شعرَاءِ الرَّسولِ ﷺ، كحسَّانِ بن ثابت ، وكعبِ بن مالك ، وعبدِ الله بن رواحة ، وَكعبِ بن زهير ، وغيرهم.

وَمِنْ أهمِّ شعرَاءِ المَدِيحِ النَّبويِّ في العصرِ الأمويِّ ، الفرزدق ، لاسيَّما فِي قَصيدتِه الميميَّةِ الرَّائعةِ ، الَّتِي نوَّه فيها بآلِ البيتِ ، وَاستَعْرَضَ سموَ أخلاقِ النَّبِيِّﷺ الكَرِيمِ وَفضائلِهِ الرَّائعةَ . وَقَدْ ارتبطَ مَدحُ النَّبِيِّ ﷺ بِمَدحِ أهلِ البيتِ، وَتِعْدَادِ مَنَاقبِ بني هاشم ، وَأبناءِ فَاطمة ﷺ، كَمَا عندَ الكُميتِ ، ودِعبل ، والشَّريفِ الرَّضي، وَمهيارٍ الدَّيلمي وغيرهم .

وَلكنَّ البُوصِيريَّ [2] يبقى من أهمِّ شعرَاءِ المَدِيح النَّبويِّ ، وَمِنَ المؤسِّسين الفِعليين لِلقَصِيدةِ المَدحيَّةِ النَّبويَّةِ، وَالقصيدةِ المُوْلِدِيَّة ، كَمَا في قصيدته الميميةِ الرَّائعةِ، والَّتِي عُورضَتْ من قِبلِ الكثير من الشُّعراءِ، القُدَامى وَالمحدَثين وَالمُعَاصِرين، وَمِنْ أهمِّ هؤلاء الشُّعرَاءِ ابنُ جابرٍ الأنْدَلُسيِّ[3] في ميميتِهِ البديعيَّةِ، الَّتِي استَعْمَلَ فيها المُحسِّناتِ البَديعيَّةَ بكثرة ، وَكذلك عبدُ الله الحمويُّ [4]، وَلا ننسَى في هذا المضمَارِ، الشُّعراءَ المغاربة والأنْدَلُسيِّين، الَّذِين كَانَ لهم باعٌ طويلٌ في المَدِيح النَّبويِّ، منذُ أيامِ الدَّولة المرِّينيَّة.

وإذا انتَقَلْنَا إلى الأدَبِ الغرنَاطيِّ لرَصْدِ ظاهرة المَدِيحِ النَّبويِّ ، فَنَجِدُ أنَّ الشُّعراءَ الغرنَاطيِّين سبَّاقُون إلى الاحتفالِ بمولدِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَنظمِ القَصَائدِ في مدحِ الرَّسُولِ ﷺ، وَتعدادِ مَنَاقِبِه الفاضلةِ، وَذِكْرِ صفاتِه الحميدةِ، وَتناولِ سيرتِهِ النَّبويَّةِ الشَّريفةِ ، وَاستحضَارِ الأمكنةِ المقدَّسة الَّتِي وطئهَا.

أوَّلاً: عَوَامِلُ النَّشأةِ وَالازْدِهَارِ:

تَضَافَرَتْ خَمسةُ عوَامِل فيمَا بينها لِتَجْعلَ من المَدِيح النَّبويِّ فنّاً أثيراً ومحبَّباً، لدى الشُّعراء الغرناطيِّين، تَمثَّل **العَاملُ الأوَّل** في اهتمَامِ الأنْدَلُسيِّين– منذُ وَقتٍ مُبكرٍ– بالسِّيرةِ النَّبويَّة، درساً وَتهذيباً وَتأليفاً، فَحينما نَضَجتِ الثَّقافة الأنْدَلُسيَّةُ، خلالَ القرنين الرَّابع والخامس الهجريين، رأينا الأنْدَلُسيِّين أنفسهم يُشَارِكُون في التَّأليفِ في السِّيرةِ النَّبويَّة.

([2]) محمَّد بن سعيد بن حمَّاد بن عبد الله بن صنهاج ، أحد أبويه من "أبو صير" والآخر من"دلاص" من قرى بني سويف، له قبرٌ مشهورٌ في الإسكندرية ، به مسجدٌ كبيرٌ، شاعرٌ ظريفٌ من شعراء القرن السَّابع، تجري في شعره النُّكت المستملحةُ، ت697هـ،يُنظر: د.زكي مبارك، **المَدَائح النَّبويَّة** ، ص141. ولمعرفة أثر قصيدة البردة في الأدب العربيِّ ولغته، وأحلامِ الصُّوفيَّة ، وسبب نظمها ، وفضلها في نشأة البديعيات، يُنظر: د.زكي مبارك ، **المَدَائح النَّبويَّة** ، ص141 وما بعدها.

([3]) محمَّد بن أحمد بن علي الهواري الأندلسيِّ، يكنى أبا عبد الله ويُعرف بابن جابر، من أهل ألمريَّة، ، وكان شاعراً مكثراً ت780هـ ، يُنظر: ابن الخطيب محمد بن عبد الله ، **الإحاطة في أخبار غرناطة**، تحقيق محمَّد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي، ط2، القاهرة 1973م) 330/2.

([4]) تقي الدِّين بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري، له مؤلفات عدَّة ،صاحبُ بديعية رائعة ذكرها في كتابه خزانة الأدب وغاية الأرب ، يُنظر: د.زكي مبارك، **المَدَائح النَّبويَّة**، ص171 وما بعدها.

وَمِنْ أجلِّ العُلماءِ الَّذِين اضطلعوا بذاك ابنُ حزمٍ القرطبيّ {ت456هـ} صَاحبُ "جوامعُ السِّيرة"، وَصديقُهُ أبو عمر بن عبد البرِّ{ت463هـ} صَاحبُ "الدُّررِ في اختصارِ المغازي والسِّيرة" و"الاستيعابِ في معرفة الأصحاب".

وَبعدَ ذلك، بنحوِ قرنٍ، يَتَجلَّى اهتمامُ الأنْدَلُسيِّين وَالمغاربةِ بالسِّيرةِ النَّبويَّةِ، وَبوصفِ شمَائلِ النَّبِيِّ ﷺ، في كِتابين، أصبحتْ لهمَا مَكانةٌ عظيمةٌ وَذيوعٌ هائلٌ في العالمِ الإسلاميِّ بأسره، أولهما: كِتابُ "الشِّفا في التَّعريفِ بحقوقِ المُصْطَفَى" للقَاضي عياض بن موسى السَّبتيِّ {ت544هـ}، والثَّاني: "الرُّوضُ في شرحِ سيرةِ ابن هشام" لأبي زيدٍ عبد الرَّحمن بن عبد الله السَّهيليِّ {ت581هـ}. وَظلَّ الاهتمام قائماً حتَّى أواخر أيَّامِ دولة المسلمين بالأنْدَلُس.

أمَّا العَاملُ الثَّاني ، فقد تَمثَّلَ فيما ينتابُ الأنْدَلُسيتن مِن شَوقٍ جَارفٍ للجَانبِ النَّبويِّ ، وَحرصٍ عَلَى أدَاءِ فريضةِ الحجِّ ، كَوشيجةٍ تَرْبطُهُم بأرضِ الرِّسالاتِ.

وَكَانَ للبُعْدِ الجغرافيِّ أثرٌ بالغٌ في إذكاءِ لهيبِ الشَّوق ، وتعميقِ الرَّغبةِ في اجتيازِ هذا العَائقِ، وَهذا ما قرَّره د. زكي مبارك بقولِه:(لأنَّ بُعدَ المَزَارِ غَزَا القلُوبَ بِأقبَاسِ الحَنينِ)[5]، وَصَاغَهُ ابنُ الصَّايغ[6] شعراً، فقالَ[7]:

بُعْدُ المَزَارِ وَلَوعَةُ الأشْوَاقِ حَكمَا بِفَيْضِ مَدَامِعِ الآمَاقِ

ثُمَّ جَاءَ الاحتفَالُ بِالمَوْلِدِ النَّبويِّ –الَّذِي أضحى ، ابتداءً من أوَائلِ القرنِ السَّابعِ الهجري ، تَقْلِيداً رَاسِخاً– لِيُضِيفَ **عَامِلاً ثَالثاً** مِنْ عوَاملِ إثرَاءِ الحركةِ الشِّعريَّةِ بتيارٍ من قَصَائدِ المَدِيحِ النَّبويِّ.

مع العلمِ أنَّ شَطراً كبيراً مِنَ المَغْربِ العربيِّ سبقَ له أنْ أسهَمَ في الاحتفَالِ بالمَوْلِدِ النَّبويِّ قبلَ هذا التَّاريخِ، أيَّامَ خضوعِه للخلافةِ الفاطميَّةِ في مصر، حيثُ كان المَوْلِدُ النَّبويُّ من الأعْيَادِ الَّتِي احتفلَ بها الفاطميون[8]، وَلكن أوَّلَ مَنْ أقامَ الاحتفَالاتِ بهذِهِ المُنَاسَبَةِ هو مُظفَّرُ الدِّينِ كوكبري صَاحبُ إربل[9].

وَيرجعُ الفَضْلُ في أنْ أصبحَ المَوْلِدُ النَّبويُّ عِيداً رَسْمِياً في المَغْربِ وَالأنْدَلُس ، يُضَارعُ في فخَامتِهِ مَا اتَّسمتْ بهِ أكثرُ الأعيَادِ الإسلاميَّة الأخرى –مثل عيدي الفطرِ وَالأضحَى – إلى وَالي سبتة الأميرِ الفَقِيهِ أبي العَبَاسِ الشَّهيرِ بابنِ عزفةِ اللَّخميِّ{633–707هـ}[10]، ثمَّ أتمَّهُ ابنُهُ أبو القَاسمِ صَاحبُ سبتة{647–677هـ} الَّذِي راعَه وهالَه مشاركةُ أهلِ المغربِ وَالأنْدَلُس جِيرَانَهم مِنَ الفرنجة أعيَادهم ، فندَبَ نفسَه لِتغييرِ هذهِ البدعةِ ، وَقَدْ استطَاعتْ هذهِ الحملةُ أن تؤتي ثمارَهَا ، فأقلعَ مسلمو الأنْدَلُس وَالمغربِ عَن الاحتفَالِ بِالأعيادِ الإفرنجيَّة ذاتِ الصِّبغةِ الدِّينيَّة الوَاضحةِ (راحُوا يحتفلون بالمَوْلِدِ النَّبويِّ الشَّريفِ، واستمرَّ الاحتفالُ بالمَوْلِدِ النَّبويِّ في المغربِ والأنْدَلُس عَلَى المستويين الشَّعبيِّ والرَّسميِّ طِوال

([5]) د.زكي مبارك: **التَّصوُّف الإسلاميُّ في الأدبِ والأخلاقِ** (مطبعة الرِّسالة، القاهرة 1983م) 280/1.

([6]) محمَّد بن عبد الله بن محمَّد بن لبٍّ الأميِّ، يُكَنَّى أبا عبد الله، ويُعرف بابنِ الصَّايغ، من أهل ألمريَّة، ت749 هـ، يُنظر: ابن الخطيب ، **الإحاطة** 433/2 .

([7]) ابن الخطيب: **الإحاطة** 434/2 ، **وَالكتيبة الكامنة في مَنْ لقيناه بالأندلس من شعراءِ المائة الثَّامنة**، تحقيق د. إحسان عباس (دار الثَّقافة ، بيروت ، 1963م) ص88.

([8]) المقَّريزي أبو العباس أحمد بن علي: **المواعظُ وَالاعتبارُ بذكرِ الخُططِ والأثَارِ**(القاهرة ، ط2، 1987م) 389/2.

([9]) فقد ذكرَ المَقَّريُّ أنَّ ابنَ دحيَّة ، صاحبَ المطرب ، لمَّا قَدِمَ مدينة"إربل" ورأى اهتمام صاحبها كوكبري سنة 604هـ بعمل المولدِ، ألَّف كتاباً سمَّاه "كتاب التَّنوير في مولد السِّراج المنير" وقد ختمه بمدحيَّةٍ طويلةٍ = في مدح مظفر الدِّين الملك، يُنظر تصاريف ذلك: المَقَّري شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد، **نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرَّطيبِ** ، تحقيق د.إحسان عباس (دار صادر ، بيروت ، 2004 م) 104/2 وما بعدها.

([10]) أحمد بن محمَّد بن الحسين بن عزفة اللَّخمي، يُكَنَّى أبا العباس، مؤلِّف" الدُّرر المنظَّم في مولد النَّبِيِّ المعظَّم" الَّذِي أتمَّه ابنه أبو القاسم بعد وفاته. يُنظر: المَقَّري ، **أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض**، تحقيق: مصطفى السَّقا وإبراهيم الإبياري (صندوق إحياء التراث، الرِّباط ، 1399هـ) 374/2–375.

العصورِ التَّاليةِ ، وَاتَّخذَ القرنُ الثَّامنُ الهجري ، بصفةٍ خَاصَّةٍ ، من مظَاهرِ الفخَامةِ ما أصبح به أعظمُ الأعيادِ الإسلاميَّة)[11]. يقول ابنُ الجيَّابِ[12] مُرَحِباً بهذه الذِّكرى[13]:

أهلاً بوافِدِهِ الكَرِيمِ وِفَادةً بِالطَّالِعِ المَيمُونِ شَهْرَ رَبِيعِ
يَا مَولداً فَاضَتْ لنَا بَرَكَاتُه فِي لَيلَةِ المِيلادِ وَالأسبُوعِ
فِيه بَـدَا قَمَـرُ السَّعَادةِ طَالِـعاً فِي خَيرِ مِيقَاتٍ وَخيرِ رُجُوعِ

وَقَدْ اقترنَ الاحتفالُ بالمَوْلِدِ النَّبويِّ بِمَظَاهرِ الفخامةِ وَالبذخِ ، انسَحَبَتْ هذه المظاهرُ عَلَى كلِّ بلدَانِ المغربِ: في غرناطة ، وفاس ، وتُونس ، وتلمسان ، فابنُ الخَطيبِ[14] يقدِّم لنا ، مِنْ خِلالِ نصٍّ فَرِيدٍ في بَابِهِ، مظَاهرَ احتِفَالِ مُحَمَّدٍ الخَامسِ "الغنيِّ بالله" بالمَوْلِدِ النَّبويِّ لسنةِ 764هـ، مُحْتَفِظاً بِعددٍ مِنْ قَصَائدِ المَدِيحِ النَّبويِّ الَّتِي قِيلتْ في هذِهِ اللَّيلة ، حتَّى بلغَ عددُهَا خمساً وَعشرين قصيدةً .

فِي البدءِ وَصفَ القَصْرَ الَّذِي أُقيم فيه الحفلُ ، وَصْفاً دقيقاً ، ثُمَّ أتى عَلَى وَصفِ الحَفْلِ تَفْصِيلاً، فَقَالَ: (لمَّا اجتَمَعَ النَّاسُ ، وَمَاجَ مِنْ دُونِ الأبْوَابِ البَحْرُ، وَكَادَ يُرْدِيهم عَلَى انفِسَاحِ المَدَى الضَّغطُ ، بَرَزَ السُّلطَانُ فِي خَاصَّتِهِ ، فَاقتَعَدَ أرِيكَةَ المُلْكِ ، ثُمَّ أُذِنَ لِلنَّاسِ عَلَى طَبَقَاتِهم فَاسْتَقَرُّوا عَلَى تَرَاحُمٍ وَتَدَافُعٍ ... ثُمَّ أُقيمت الصَّلاةُ جَامعَةً ، وَبَعدَهَا أُحْكِمَ الخَدَمةُ وَالعُرفَاءُ وَنُبَهَاءُ المَمَالِيكِ تَرْتِيبَ النَّاسِ، يَكُونُ قُربُهُم مِنَ مَجْلسِ السُّلطَانِ بِحَسَبِ مَكَانتهم: شيوخُ القَبَائلِ، وَالأشرَاف.. ونساءُ الملُوكِ وَأهلُ العلمِ ، وَبينَ يَدِيهِ دُونَ مَجْلِسِه: الصُّوفيَّةُ وَالفُقَرَاءُ، وَهم كَثِيرُون...

– وَيُفَصِّلُ القَوْلَ ، في إطنَابٍ ، عمَّا يُقَدَّمُ مِن أطايبِ الطَّعَامِ ، وَألوَانِ اللُّحومِ ، وَفَاخِرِ الفَاكِهةِ وَالحَلوى، في صنوفٍ لا تخطر عَلَى البال ، وفي حفلِ العامِّ الَّذِي يصفُه ابنُ الخطيب ، أُهديت للسُّلطانِ ساعةٌ ليليةٌ ..

... ثُمَّ يبدأُ الذِّكرُ، تَتَجَاوبُ به الجِهَاتُ وَالأصدَاءُ ، ولفَّ الذَّاكرينَ "الوَجدُ" ثُمَّ كَانَت الإفَاقَةُ ، وَاغْمَامتِ السَّماءُ بدخَانِ العنبرِ السِّحريِّ ، ثمَّ سُكبَ مَاءُ الوَردِ ... ثُمَّ اندَفَعَ "المُزَمْزِمُ"، وَهُوَ المَخْصُوصُ بِالمَدَاعِي المَلكيَّة ، المُتَمَيِّز بِالإعرَابِ وَقِرَاءةِ القَرِيضِ ، وَكلَّما مَرَّ بمعنىً مُثيرٍ للوَجْدِ لبَّتهُ الصُّوفيَّةُ وَالفُقَراءُ بينَ وَاجِدٍ وَمُتَوَاجِدٍ... وَ"المِسمِعُ" يُوَاصِلُ القَصَائدَ المَنْظومةَ فِي مَدْحِ الرَّسُولِ عَليهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ ، وَالإشَادةَ بِمِيلادِهِ وَذِكْرِ مُعْجِزَاتِهِ ، ثُمَّ التَّخلُّصَ إلى مَدْحِ السُّلطانِ وَذِكْرِ خِلالِهِ... ثُمَّ أُذِنَ فِي الانْصِرَافِ ، وَأجْمَعَ الإخْبَاريونَ وَشيوخُ الرِّحلةِ ، وَأهلُ الجَولَةِ ، وَأرْبَابُ الدُّولِ

([11]) د.محمود علي مكي:**المَدَائحُ النَّبويَّة** (الشَّركة العالمية للنَّشر، القاهرة، 1990م) ص 125 وما بعدها .

([12]) علي بن محمَّد بن سليمان بن علي بن حسن الأنصاري، من أهل غرناطة، يكنَّى أبا الحسن، ويُعرف بابن الجيَّاب، ت 749هـ ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 125/4(له ديوان شعر مخطوط غير محقق في دار الكتب المصرية تحت رقم 2424، وقد ذكر ابن الخطيب أنَّه جمعه بعد وفاة شيخه).

([13]) ابن الجيَّاب: **ديوانه**، ص 120 .

([14]) محمَّد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله الخطيب سعيد بن أحمد السَّلماني اللَّوشي المعروف بابن الخطيب، نزيل فاس المقتول بها سنة 776هـ، يُنظر: ابن الأحمر، إسماعيل بن يوسف، **نثير فرائد الجُمَان في نظم شعرَاء الزَّمان**، تحقيق د.محمَّد رضوان الدَّاية (دارالثَّقافة،بيروت 1967م) ص 242 .وترجم ابنُ الخطيب لنفسه وقال: قرطبيُّ الأصل، ثم طُليطُلي، ثم لَوْشِي، ثمَّ غَرْنَاطِي، يكنَّى أبا عبد الله، ويلقَّب من الألقاب الشَّرقيَّة بلسان الدِّين، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**438/4.وله ديوان شعر تحقيق الدكتور محمَّد مفتاح(دار الثَّقافة ، بيروت، 1989م)

... فِي أَنَّ هَذَا الصَّنيعَ مَا بينَ مَحلِّهِ وَطَعَامهِ وَمَسْمُوعهِ وَآلتهِ، بِكْرُ الزَّمَانِ ، لَمْ يُنسجْ لَهُ عَلَى مِنْوَالٍ ، ولا سبقَهُ إلى غايةٍ)[15].

ويصفُ أبو عبدِ الله التَّنسيُّ التِّلمسانيُّ وَاحدةً من هذه الاحتفالات الَّتِي كان يُقيمها أبو حمو الزَّيانيُّ {723–791}[16] ببلاطِه بتلمسَان ، رَاصداً ما دَارَ بين حناياها من طقوسٍ، فقالَ:(.. وَكانَ يَقُومُ بِحقِّ ليلةِ مَوْلِدِ المُصْطَفى ﷺ وَيُحتفلُ لَهَا بمَا هُوَ فَوقَ سَائِرِ المَوَاسِمِ ، يُقيمُ مَدْعَاةً يُحشَرُ لَهَا الأشْرَافُ وَالسُّوقةُ ، فَمَا شِئتَ مِنْ نَمَارِقَ مَصْفُوفَةٍ ، وَزَرَابِيّ مبْثُوثَةٍ ، وَشْمعٍ كَالاسْطِوَانَاتِ ، وَأعيَانُ الحَضْرَةِ عَلَى مَرَاتِبِهم ، تَطُوفُ عَلَيهم وِلْدَانٌ قَدْ لَبِسُوا أَقْبِيَةَ الخزِّ المُلوَّنِ، وَبأيدِيهم مَبَاخِرُ وَمَرَشَّاتٌ ، يَنَالُ كُلٌّ مِنْهَا بِحَظِّهِ ، وَخِزَانةُ المِنْجانةِ ذَاتُ تَمَاثِيلِ لُجِينٍ مُحْكَمةِ الصَّنعةِ ... وَالمُسْمِعُ قَائمٌ يَنْشُدُ أمْدَاحَ سيِّدِ المُرْسَلِين ﷺ ... ثُمَّ يُؤتى آخرَ اللَّيلِ بموَائِدِ كَالهَالاتِ دُوراً ، قَدْ اشتَمَلتْ مِنْ أنْوَاعِ مَحَاسِنِ الطَّعَامِ عَلَى ألوَانٍ تَشْتَهِيها الأنْفُسُ وَتَسْتَحْسِنُهَا الأعينُ .. وَالسُّلطانُ لمْ يفَارقْ مَجلسَه الَّذِي ابْتَدَأ جُلُوسهُ فِيهِ، وَكُلُّ ذَلك بِمرأى مِنْهُ وَمَسْمعٍ ، حتَّى يُصَلِّي هُنالكَ صلاةَ الصُّبحِ ..)[17] .

وَيَرَى ابنُ خلدون أنَّ الاحتفالَ بالمولدِ النَّبويِّ الشَّريفِ في الأنْدَلُسِ جاء اقتداءً بملوكِ المغربِ[18]

وَقَدْ عكسَ الشَّاعرُ الغرناطيُّ مثلَ هذه الجوَانبِ الَّتِي احتفَى بها أمراءُ البيتِ النَّصريِّ وسلاطينه ، يقولُ ابنُ الخطيبِ مُظهراً مدى حرصِ السُّلطانِ أبي الحجَّاج عَلَى الاحتفالِ بليلةِ المَوْلِدِ النَّبويِّ[19]:

فَلِلَّهِ مِنْهَا لَيْلَةٌ بَرَكَاتُهَا ... سَحَائِبُهَا تَنْهَلُّ بِالنِّعَمِ العمِّ!
أَشَادَ أميرُ المُؤمِنِينَ بِفَضْلِهَا ... فَأَحْيَا سَبِيلاً دَارِساً لأُوْلِي العِلْمِ
وَآثَرَ تَقْوَى اللهِ مِنْهَا فَلَمْ يَكُـنْ ... بِمُشْتَغِلٍ عَنهَا بِزِيرٍ وَلا بَـمِّ

وَقَالَ في موطنٍ آخر[20]:

أَقَمْتَ لِمِيلادِ الرَّسُولِ شَعَائِراً ... بِهَا اللهُ عَنْ ذَنْبِ المُسِيئِينَ صَافِحُ
تَبَاهَتْ بِأَمْدَاحِ الرَّسُولِ "مُحَمَّد" ... فَطَابَتْ بِذِكْرَاهَا الرِّيَاحُ النَّوَافِحُ
هي اللَّيلَةُ الغَرَّاءُ حَسْبُكَ لَيلَةً ... بِهَا نَجْمُ دِينِ اللهِ أزهَرُ لائِحُ
فَيَا لَيْلَةَ المِيلادِ، دُونَكِ مِدْحَةً، ... وَأَيْسَرُ مَا تُهْدَى إِلَيكِ المَدَائح
وإنْ أنْتَ بِالإِقْبَالِ قَابَلْتَ وَفْدَهَا ... فَتَسْمَحُ بِالأَمْدَاحِ فِيكَ القَرَائِحُ
فَمَا النَّاسُ طُرّاً غَيْرُ صِنْفَينِ: حَامِدٌ ... عَلَى فَضْلِ مَا تُولِي، وَآخرُ مَادِحُ
فَدُمْ نَاصِراً لِلدِّينِ، مَا حَنَّ نَازِحٌ، ... وَمَا افْتَنَّ فِي غُصْنِ الأَرَاكَةِ صَادِحُ

([15]) ابن الخطيب: **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تحقيق فاغية السَّعدية (مطبعة النَّجاح الجديدة ، ط2، الدَّار البيضاء، 1982م) 277/3–285 .

([16]) موسى بن يوسف بن عبد الرَّحمن بن يحيى بن يغماسن بن زيان، يُكَنَّى أبا الحمو، أمير تلمسان، شاعرٌ ومهتمٌ بأخبار الملوك، مات قتيلاً عَلَى يد ولده أبي تاشقين، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 286/3.

([17]) المَقَّري: **النَّفح** 514/6 .

([18]) يُنظر: ابن خلدون : **العِبر وديوان المبتدأ والخبر**، أو**تاريخ ابن خلدون**(مطبعة بولاق ، القاهرة،1284هـ)81/7.

([19]) ابن الخطيب: **ديوانه**، ص 531 .

([20]) ابن الخطيب: **ديوانه**، ص 228–229 .

وَكَانَ أولو الأمرِ يَحرصُونَ عَلَى توجيه الدَّعوةِ للشُّعراءِ والوجهاءِ للمشاركةِ في هذا الاحتفالِ ، داخلَ الأنْدَلُسِ أو خارجهَا ، فقد وجدْنَا ابنَ زُمرك[21] يَسْتَحِثُّ ، من خلالِ قصيدةٍ له ، شعرَاءَ المغربِ عَلَى إرسالِ قصائدهم تارةً، وَيُدعَى لِتَمثيلِ البلاطِ الغرنَاطيِّ لدى بني مَرين تارةً أخرى[22]. ويعبِّرُ عن تَوَافِدِ الوجهاءِ عَلَى بلاطِ الغنيِّ بالله ، تَحفُهُم السَّكينةُ ، وتَحْتَضِنَهم الهناءةُ ، فيقول[23]:

للهِ دَولتُكَ الَّتِي آثارُهَا سِيَرُ الرِّكَابِ لمُنْجِدٍ أو مُتْهِمِ
مَا بَعدَ يَومكَ فِي المَوَاسِمِ بَعدمَا أَنْبَعْتَ عِيدَ الفطْرِ أكرمَ مَوْسِمِ
وَافَتْكَ أشرَافُ البِلادِ لِيومِهِ مِنْ كُلِّ نَدْبٍ لِلعُلا مُتَسَنِّمِ
صَرَفُوا إليكَ رَكَابَهمْ وتيمَّموا مِنْ بَابِكَ المَنتاب خَيْرَ مُيمَّمِ
وَتبوّأوا مِنْهُ بِدَارِ كَرَامَةٍ فَالكُلُّ بَينَ مُقَرَّبٍ وَمُنَعَّم

وَفِي هَذَا اليومِ يَتَبَارَى الشُّعرَاءُ ، وَيُحَاولُ كُلُّ وَاحدٍ منهم إبرازَ أفضلَ ما عنده ، مِنَ العوَاطِفِ الدِّينيَّةِ الجياشةِ، بكلِّ صدقٍ ، أملاً في إعجَابِ أولي الأمرِ من جهةٍ ، والمجتمعِ من جهةٍ أخرى ، فضلاً عمَّا يُجْزَوْنَ به مِنْ هؤلاء وأولئك ، من جهةٍ ثالثةٍ.

وَفِي مَوطنٍ آخر يشيرُ إلى بعضِ مظاهرِ الاحتفَالِ بالمَوْلِدِ النَّبويِّ، ويبدو من رصده أنَّ "الغالبَ بالله" كانَ يتَّخذُ منه مجالاً لاستعراضِ القوى؛ إرهاباً لعدوٍّ قابعٍ يتحيَّن فرصةً تسنح، فقال[24]:

فَأقَمْتَ مِيْلادَ الرَّسُولِ بِلَيلةٍ أوضَحْتَ فِيهَا لِلجِهَادِ سَبِيلا
حَيثُ القُبَابُ البِيضُ جَلَّلتِ الرُّبا أزهَارَ رَوضٍ مَا اكتَسَينَ ذُبُولا
يَتَجَاوَبُ التَّكْبِيرُ فِي جَنَبَاتِهَا فَتُعِيْدُهُ غُرُّ الجِيَادِ صَهِيلا
حَملَتْ مِنَ الأبطَالِ كُلَّ مُشمِّرٍ لا يَفْتَني سُمْرَ القَنَا وَنُصُولا
آسَادُ مَلْحَمَةٍ إذا اشْتَجرَ الوَغَى دَخَلُوا مِنَ الأُسْلِ المُثَقَّفِ غِيلا
إنْ شَمَّرُوا يَومَ الحُرُوبِ ذُيولَهُم سَحَبُوا مِنَ الزُّردِ المُفَاضِ ذِيولا
أو قَصَّرُوا يَومَ الطِّعَانِ رِمَاحَهم وَصَلُوا بِهَا الخَطْوَ الوَسَاعَ طُويلا
يَا ليلةً ظَفَرَتْ يَدَاي بِأجْرِهَا وَسَهَرْتُ فِيْهَا بِالرِّضَا مَشْمُولا

ثمَّة **عَاملٌ رَابِعٌ** يتمثَّلُ في الوَاقعِ السِّياسيِّ المُفْعمِ بِرَائحةِ التَّربُّصِ وَالفَتكِ، فَقَدْ بدأتْ أحوَالُ المُسلمينَ في الأنْدَلُسِ – مع بدَايةِ القَرْنِ السَّادسِ الهجري – تتَدهورُ وَتسوء ، وَراحتْ القوى الصَّليبيَّةُ تنتزعُ الحوَاضرَ الإسلاميَّةَ، مُقتطعةً إيَّاها من الكيانِ الأمِّ ، الواحدةَ تلو الأخرى ، مِمَّا شكَّل تَهديداً صَارخاً للكيانِ الإسلاميِّ بالأنْدَلُسِ ، فهبَّ الشُّعراءُ ، يوقِظُونَ

([21]) محمَّد بن يوسف بن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن يوسف بن محمَّد الصَّريحي، المعروف بابن زُمرك ت795هـ ، مَدَحه ابنُ الخطيب في **الإحاطة** 300/2، وذمَّه في **الكتيبة** ، ص282. وله ديوان شعر، تحقيق د. محمَّد توفيق النَّيفر (دار المغرب الإسلاميّ، ط1، المغرب 1997م).

([22]) يُنظر: المَقَّري: **النَّفح** 197/7 وما بعدها .

([23]) المَقَّري: **النَّفح** 186/7، **والأزهار** 60/2، وابن زُمرك: **وديوانه**، ص 113، وله شبيه هذه الأبيات في **النَّفح** 172/5.

([24]) المَقَّري: **الأزهار**، 96/2، وابن زُمرك: **ديوانه**، ص 86.

الهِممَ ، متَّخذينَ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ نِبْرَاساً وَهادياً ، بَاثِينَ همومَهُم وشجونَهُم في هذِهِ القَصَائدِ، طَالبينَ الشَّفاعةَ وَالعونَ والنَّصرَ .

وَمِنَ الجِديرِ بِالذِّكرِ أنَّ تَشَابهاً وَاضِحاً بين المَشرقِ وَالمَغربِ فِي العَاملِ الَّذِي أدَّى إلى إكثارِ شعراءِ غرناطة من المَدِيح النَّبويِّ ، وَالتوسُّلِ للرَّسولِﷺ، وَالبوحِ لهُ بِالهمُومِ وَالأشجانِ ؛ فَفِي المَشْرِقِ كانت الأمَّةُ تُعَانِي الغزوَ الصَّليبيَّ القَادمَ إليها من الغربِ ، ثُمَّ الهجُومَ التَّتريَّ الكَاسحَ المُنْطَلَقَ من الشَّرقِ ، وَأمَّا في الأنْدَلُسِ فَكَانت البلادُ تتعرَّضُ لِزَحفٍ إفرنجيٍّ لمْ تُفلحْ في صدِّهِ ، فَشَعَرَ الشُّعراءُ –هُنا وَهناك – بِالضَّعفِ وَقلَّةِ الحيلةِ ، فمَا كان مِنْهم إلاَّ أنْ يَتَوجَّهوا إلى الله ؛ لِطَلَبِ المغفرةِ وَالنَّصرِ، ثُمَّ إلى الرَّسُولِ ﷺ يَسْتَشْفِعُونَ بهِ ، وَيَطْلُبُونَ الدُّعاءَ وَالمددَ وَالعونَ عَلَى التَّخلُّصِ من المِحَنِ والمصائب ...

أمَّا **العَاملُ الأخير** فَيتجسَّدُ في انتشَارِ الفكرِ الصُّوفيِّ بينَ الأوسَاطِ المُسلمة، وَعَلَى الرَّغمِ مِنْ أنَّ هذا الفكرَ بَدَأ ضَعِيفاً ؛ بِسببِ مُحَاربةِ الفقهَاءِ وَالمُحَدِثين من أهلِ الظَّاهرِ له، ولكنَّه سرعانَ ما انتشرَ بشكلٍ واسعٍ، حتَّى إنَّنا نجدُ أنَّ العَامِلِينَ في هذا المجالِ أصبحَ لهُمْ منزلةٌ عندَ حكَّامِ البلادِ، من جهة، وعند العامَّة، من جهةٍ أخرى. فمن سلاطينِ البيتِ النَّصريِّ الَّذِين أبدوا ميلاً إلى رجال التَّصوُّف السُّلطانُ أبو الحجَّاج يوسف ، طَالباً من شعرائِه الإشادةَ بهم ، وَالعزفَ عَلَى منوالهم[25].

فضلاً عنْ أنَّ طقوسَ المتصوِّفة ، مِنْ أدعيَّةٍ وَحلقاتِ ذِكرٍ وإنشادٍ، وَاهتمَامٍ بإحياءِ ذكرى المَوْلِدِ النَّبويِّ، كُلُّها سَاعدَتْ عَلَى خلقِ مناخٍ مناسبٍ لِنشأة وَشيوعِ المَدَائح النَّبويَّة ، بل إنَّ الدّكتور زكي مبارك يُولِي هذا العَاملَ أهميَّةً خاصَّةً ، دُونَ سِوَاه ، حينمَا يَقْصرُ دَوَافعَ نشأةِ هذا الفنِّ وَمناخه عَلَى البيئاتِ الصُّوفيَّة ، فَيَذهبُ إلى أنَّه (لمْ يَهْتمْ بهِ مِنْ غَيرِ المُتَصوِّفةِ إلاَّ القليلُ)[26].

وَمن خلالِ المتابعةِ الدَّقيقةِ ، وَجَدنَا أنَّ منْ أهمِّ مميزَاتِ المَدِيحِ النَّبويِّ الغرناطيِّ، مِنْ حيثُ النَّشأةُ ، أنَّهُ انطلقَ من رؤيةٍ إسلاميَّةٍ ، وهَدَفَ إلى تَغييرِ الوَاقعِ المُعَاشِ ، وَتَجاوزِ الوضعِ السَّائد ، نحوَ وَاقعٍ ممكنٍ ، يقومُ عَلَى المرجعيَّة السَّلفيَّة بالمفهومِ الإيجابيِّ.

كَمَا أنَّ هذا الشِّعرَ طُبعَ بالرُّوحانيَّةِ الصُّوفيَّةِ ؛ من خلالِ التَّركيز عَلَى الحقيقةِ المُحَمَّديَّة ، الَّتِي تَتَجلَّى في السِّيادةِ وَالأفضليَّةِ وَالنُّورانيَّةِ ، فهذه الرُّوحانيَّةُ أثَّرت تأثيراً واضحاً ومُهمًّا في إثارةِ الحميَّة الإسلاميَّة ؛ حبّاً بِالإسلام وَرسُولِهِ.

ثانياً: شُعَرَاءُ المَدِيحِ النَّبويِّ الغرناطيون:

تَعَاقَبَتْ عَلَى نظمِ المَدَائحِ النَّبويَّةِ أجيالٌ عدَّةٌ من الشُّعراءِ على عهدِ بني الأحمرِ، تَمَايزَتْ ملامحُ نتاجاتهم؛ بتأثير تطوُّرِ فنِّ المَدِيح وطُرقِ أدائِهِ في كلِّ فترةٍ زمنيةٍ من فتراتِ تطوره.

([25]) فقد ذكرَ ابنُ الخطيب أنَّه طُلب منه أكثر من مرَّة العملَ عَلَى هذا الأمر :يُنظر: ابن الخطيب : **ديوانه**، ص 198 ، وغيرها.

([26]) د.زكي مبارك: **المَدَائح النَّبويَّة** ، ص17 .

فالرَّعيلُ الأوَّلُ ، وَقدْ وُلِدَ في الرُّبعِ الأخيرِ من القرنِ السَّابعِ ، يمثِّلهم: أبو الحسنِ بن الجيَّابِ ، وَأبو عبد الله بن جابر الضَّرير ، وأبو سعيد بن لبّ [27].

أمَّا شُعرَاءُ الرَّعيلِ الثَّاني ، فَقَدْ ولدُوا في بدايةِ القَرنِ الثَّامنِ ، فتمثَّلَ في ابنِ الخطيبِ ، وابنِ الحاج النُّميريِّ[28]، وأبي القاسمِ بن رِضوَان [29]. ثُمَّ تَوَالت الأجيالُ ، عبرَ ابن زُمرك ، وأبي القَاسمِ البرجيِّ[30]

وأبي القاسمِ التجيبيِّ[31] ، مروراً بيوسف الثَّالث[32] ، وأبي الحسين ابن فُركون[33]، وصولاً ، ونهايةً ، بعبدِ الكريم القيسيِّ [34]، وغيرهم.

وَتأثيرُ فنِّ المَدَائح النَّبويَّةِ في القرنِ السَّابعِ وَاضِحٌ، في مدَائحِ الجيلِ الأوَّلِ، حيثُ جاءت قصائدُهم –غالباً– من المعشراتِ وَالتَّخميسَاتِ وَالوتريَّاتِ ، وهي الألوانُ الشَّائعةُ في تلك الفترة[35].

فَابنُ الجيَّابِ جعلَ معظمَ مدَائحَهُ في المُعشرَاتِ وَالتَّخميساتِ[36]، مع العلمِ أنَّه أدخلَ في مدائِحِهِ أشكالاً أخرى منَ القصَائدِ، كقصَائدِ المَوْلِدِيَّات[37] وَأبياتِ الحذقةِ[38]. في حينٍ سمَّطَ المُنْتَشاقريُّ [39] الوتريَّاتِ لابن رشيدٍ الفهريِّ، وخمَّسَ البُردةَ ، وَلهُ تَسْديسٌ وَقصَائدُ مستقلَّةٌ في المَدَائحِ النَّبويَّةِ [40].

([27]) فرج بن قاسم بن أحمد بن لبٍّ التغلبيّ، من أهل غرناطة، يكنَّى أبا سعيد، من أساتذة المدرسة البصرية ت783هـ ، يُنظر: ابن الخطيب ، **الإحاطة** 253/4 ، **والكتيبة** ص 67، وابن الأحمر، **نثير الجُمَان في شعر من نظمني وإيَّاه الزَّمان**–كتاب أعلام المغرب والأندلس في القرن الثامن– تحقيق د. محمَّد رضوان الدَّاية(مؤسسة الرِّسالة بيروت، ط1 ، 1976م) ص 186.

([28]) إبراهيم بن عبد الله بن محمَّد بن إبراهيم بن أسد بن موسى بن إبراهيم بن عبد العزيز بن إسحاق بن أسد بن قاسم النُّميري من أهل غرناطة، يكنَّى أبا إسحاق ويُعرف بابن الحاج، ت768هـ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**342/1، وابن الأحمر: **نثير فرائد الجُمَان**، ص 313 وذكر أنَّه أدركه.

([29]) عبد الله بن يوسف بن رضوان بن يوسف بن رضوان النَّجاريّ الخزرجيّ، يكنَّى أبا القاسم المالقيّ الأَنْدَلُسي ثمَّ الفاسي، وصاحب القلم الأعَلَى لهذا العهد، ت783هـ، يُنظر:ابن الخطيب، **الإحاطة**443/3.و**الكتيبة**، ص 254 وابن الأحمر، **نثير الجُمَان**،ص233.

([30]) محمَّد بن يحيى بن محمَّد بن يحيى بن إبراهيم الغسَّانيّ البرجيّ، يُكَنَّى أبا القاسم، من أهل غرناطة، كان أديباً وشاعراً ، رحل إلى المغرب وكتب للسلطان أبي عنان المرِّينيّ ، ت678هـ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**293/2. ، **والكتيبة** ، ص 250، وابن خلدون: **العبر** 452/7.

([31]) محمَّد بن إبراهيم بن محمَّد بن حميد التَّجيبي، يكنى أبا القاسم، يُنظر: ابن الخطيب، **الكتيبة**، ص302.

([32]) السُّلطان يوسف الملقَّب بالنَّاصر لدين الله، ولدُ السُّلطان أبي الحجَّاج يوسف الملقَّب بالمستغني بالله، ولدُ السُّلطان محمَّد الخامس الملقَّبِ بالغني بالله من أسرة بني نصر، حكم غرناطة بين 810 و828 هـ، ت820هـ يُنظر: المَقَّري، **الأزهار**:74/2 وله ديوان شعر تحت اسم ديوان ملك غرناطة يوسف الثَّالث، تحقيق عبد الله كنون (مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، ط2 ، 1965م)

([33]) أحمد بن سليمان بن أحمد بن محمَّد بن أحمد القرشيُّ، المعروف بابن فُركون، يكنَّى أبا جعفر، مدحه ابن الخطيب في **الإحاطة** 220/1، ثمَّ حمل عليه في **الكتيبة** ، ص 305.وأبو الحسين ابنه الَّذي جمع مجموعة من الأشعار في مدح السُّلطان يوسف الثَّالث وسمَّاها "**مظهر النُّور الباصر في أمداح الملك النَّاصر**" حقَّقه وأعدَّه د. محمَّد ابن شريفة (المغرب، الرِّباط 1991م) ، وله ديوان شعر، تحقيق د. محمَّد ابن شريفة (مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية ، ط1، الرباط 1987م).

([34]) محمَّد بن عبد الكريم بن محمَّد بن عبد الكريم القيسيِّ، يكنَّى أبا عبد الله، يُنظر: محمَّد ابن شريفة، **البسطي ..أخر شعراء الأندلس** (دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ط1، 1985م)ص 16–17. وله ديوان شعر، تحقيق جمعة الشِّيخة ومحمَّد الهادي الطَّرابلسي (بيت الحكمة، قرطاج، تونس 1988م).

([35]) نذكر من ذلك معشرات وعشرينات مالك بن المُرحِّل ، وأبي زيد الفازازي ، وتخميسات ابن مهيب ، وابن الجنان وغيرهم .

([36]) بقيت لابن الجيَّاب إحدى وعشرون معشرة وثُمَّانية عشر تخميساً.

([37]) يُنظر: ابن الجيَّاب ، **ديوانه**، الصفحات: 7، 119، 120 .

([38]) يُنظر: ابن الجيَّاب ، **ديوانه**، ص 52، 80 .

أمَّا قصيدةُ البُردة للبوصيريِّ فَكَانتْ عملاً أدبيّاً مهمّاً ، في مجَالِ المَدحةِ النَّبويَّةِ ، فَاقتربتْ من نفُوسِ الخاصَّةِ وَالعامَّةِ ، عَلَى السَّواءِ ، وَحَظِيتْ لدى شعرَاءِ هذا الجيلِ بِالمعَارضةِ وَالشَّرحِ وَالإنشادِ في مُنَاسبَاتِ المَوْلِدِ النَّبويِّ ، وَلَعَلَّ السَّاحليَّ المعروفَ "بالطُّوَيْجَن"[41] هو أوَّل من عارضَهَا بِقَصيدةٍ ، فِي معَانيهَا وَألفاظِهَا، وَحتَّى عَلَى وَزنِهَا وَقَافيتهَا .

وابنُ جابرٍ الهَواريُّ الأندلسيُّ صنعَ ميميةً طويلةً عَلَى هذا النَّهج منها قوله[42]:

صَافِحْ ثَرَاهْ وَقُلْ إنْ جِئْتَ مُسْتَلِماً إنَّا مُحِبوكَ مِنْ رَبْعٍ لِمُسْتَلِمِ

ومُحَمَّدٌ بن جابرٍ هذا منَ الشُّعراءِ الَّذين اهتمُّوا بِالمَدِيحِ النَّبويِّ ، فَقَدْ تَرَكَ دواوينَ في هذا الغرضِ ، وَنَهَجَ منهجَ جيلِهِ في صِنَاعةِ المعشرَاتِ[43]، وَالتَّخميساتِ ، وَالنَّظمِ عَلَى حرُوفِ المعجم ، وَالمعارضاتِ للقصَائدِ المشهُورةِ في المدحِ ، وَتركَ ، فضلاً عن ديوانِهِ ، بَدِيعيتَهُ الموسُومةَ بـ "الحلّة السِّيرا في مَدْحِ خيرِ الورى" وَيَعدُّه بعضُهم رائداً في هذا الفنِّ[44]، هذا عن ما بقي له من مصادر أخرى[45].

وَيتَّصلُ بِهَذا الجيلِ الفقيهُ أبو سعيدٍ فرجٌ بن لبٍّ ، الَّذِي سارَ في مديحه للرَّسولﷺ عَلَى طريقةِ الشَّهابِ محمود، مُعَارضاً لقصيدتِهِ الَّتِي يقولُ مطلعُهَا[46]:

وَصَلْنَا السُّرَى وَهَجَرْنَا الدِّيارَا وَجِئْنَاكَ نَطْوِي إِلَيْكَ القِفَارَا

وَمطلعُ مدحةٍ ابنِ لبٍّ[47]:

إذا القَلْبُ ثَارَ أثَارَ ادِّكَارَا لِقَلْبِي فَأذْكَى عَليهِ أُوَارَا

وَهذا الوزنُ وهذا الرَّويُّ الَّذِي قالَ المَقَّريُّ إنَّ الشُّعراءَ تَبَارَوا فيهما [48].

وَمِنْ هذا الجيلِ مُحَمَّد بن أحمد السَّاحليّ [49]، الَّذِي يسمِّي مدَائحَه أذكاراً، وَله الكثيرُ منَ القصَائدِ، قال الحضرميُّ فيه: إنَّه كانَ(مُقِيماً للسُّنَنِ وَالأَذْكَارِ .. وَلَهُ تآلِيفٌ وَشِعرٌ كثير)[50].

([39]) يوسف بن موسى بن سليمان بن فتح بن أحمد الجذاميّ المنتشاقريّ ، من أهل رندة ، يكنَّى أبا الحجَّاج، ت751هـ ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 376/4، **والكتيبة** ، ص119.

([40]) يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 4/ 389، والمقَّري: **النَّفح** 516/7 – 517 .

([41]) إبراهيم بن محمَّد بن إبراهيم الأنصاريِّ، المعروف بالسَّاحليِّ، المشهور بالطُّويجن ، من غرناطة ، مات في مالي 750هـ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 329/1 ، وابن الأحمر، **نثير فرائد الجُمَان**، ص308.

([42]) ابن جابر الهواريّ : **شعر ابن جابر الأندلسيِّ** ، صنعه د. أحمد فوزي الهيب (دار سعد الدِّين ، دمشق،ط1، 2007م)، ص 138 .

([43]) يُنظر: المقَّري، **النَّفح** 7 / 306 وما بعدها.

([44]) يُنظر: د.علي أبو زيد، **البديعيَّات في الأدب العربيِّ** (عالم الكتاب، بيروت، ط3، 1983م)، ص55.

([45]) بقيت آثار بن جابر في مصادر شتى أهمها :المقَّري، **النَّفح** 302/7 وما بعدها .

([46]) المقَّري: **النَّفح** 511/5 .

([47]) المقَّري: **النَّفح** 510/5 .

([48]) يُنظر:المقَّري، **النَّفح** 511/5 .

([49]) محمَّد بن أحمد بن عبد الرَّحمن بن إبراهيم الأنصاريّ، يكنَّى أبا عبد الله ويُعرف بالسَّاحليِّ، قال ابنُ الخطيب فيه:(وَكانَ يلمُّ بالشِّعرِ وَعادلاً عَلَى المقاصد المتركة) ت735هـ،وجنازته كانت مشهودة فيوم وفاته تزاحم النَّاسُ عَلَى نعشه، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة**239/3، **والكتيبة** ، ص45.

([50]) أحمد بابا التَّبكتي : **نيل الابتهاج بتطريز الدِّيباج**، تقديم عبد الحميد الهرَّامة(كلية الدعوة الإسلامية، طرابس، ليبيا، 1984م) ص 391.

أمَّا الجيلُ الثَّاني فَقَد كانَ يميلُ إلى المَوْلِدِيَّاتِ وَقصَائدِ أو مقطَّعاتِ المَدَائح الصِّرفةِ، تاركاً مَنْهجَ المعشرَاتِ وَالتَّخمِيَساتِ، [51]، في غرضِ المَدَائح.

وأوَّلُ عَلَمٍ مِن أعلامِه هو لسانُ الدِّين بن الخطيب، الَّذِي صَاغَ نبويَّاته في نمطِ المولَديَّات والمَدَائح الصِّرفة[52]، وَفي أبياتِ الحذقةِ، وَفيها استهلالٌ بالحمدلةِ، ثُمَّ الصَّلاةُ عَلَى النَّبِيِّﷺ، فمدحَهُ وذكرَ بعضَ معجزَاتِهِ [53].

وعَلَى الرَّغم من أنَّ ابنَ الخطيب يرى بأنَّ مدحَ الشُّعراء قاصرٌ إلى جانبِ مديحِ القرآنِ الكريم له، بقوله[54]:

مَدَحَتْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ فَمَا عَسَى يُثْنِي عَلَى عَلْيَاكَ نَظْمُ مَديحِي

وَإِذَا كِتَابُ اللهِ أَثْنَى مُفْصِحـاً كَانَ القُصُورُ قُصَارَ كُلِّ فَصِيـحِ

فإنَّنا نَجدُ ابنَ الخطيب يصفُ بعضَ مولَديَّاته بأنَّهَا منَ القصَائدِ "المذهَّبةِ"، وَهي في الواقعِ كذلك ، مقَارنةً مع مدَائحِ الجيلِ الأوَّلِ ، وإنْ كَانَ ابنُ الخطيبِ لمْ يخرجْ عن بعضِ التَّقاليدِ المتَّبعةِ في المَوْلِدِيَّات.

وَنجدُ في هذا الجيلِ أبا القاسم بنِ رضوان النَّجاريِّ الَّذِي جَاءتْ مَدَائحُهُ النَّبويَّةُ في إطَارِ المَوْلِدِيَّات[55].

وَمِنْ أعلامِ الجيلِ الثَّاني أيضاً، إبراهيمُ بن الحاجِ النُّميريُّ ، ففي المولَديَّاتِ عنده يَشْتَرِكُ فيها مَدْحُ الرَّسولِﷺ مع مَدْحِ الأميرِ[56] ، وَهوَ ، في بعضِ الأحيانِ ، ينحو منحَى المُعَارضةِ لرَائيةِ الشَّهابِ محمود المشهورة ، وَمِنْ ذلك قولُهُ في مطلعِ قَصيدةٍ يَمْدَحُ فيهَا الرَّسولَ ﷺ ، وَيثني عَلَى أبي بكرٍ السَّعيد [57]:

سَقَى اللهُ بِالأَجْرَعِ الفَرْدِ دَارَا لأمْرٍ بِهَا الشَّوْقُ وَالبَرْقُ ثَـارَا

أمَّا ابنُ خاتمةَ الأنصاريُّ [58] فَهُوَ قليلُ المَدحِ للملوكِ وَالمشاركةِ في موَاسمِ المولَديَّات، وَهذا استثناءٌ؛ فلا تُوجدُ في ديوَانِهِ ميلاديَّةٌ واحدةٌ ، وَلكنَّ ابنَ الخطيب احتفظَ له بواحدةٍ في نفاضةِ الجرَابِ[59].

والمَدَائحَ النَّبويَّةَ عندَهُ متضمِّنَةٌ قصَائدَ في الثَّناء عَلَى الله ، وتفضُّله عَلَى عبادِه ، بشتى النِّعَمِ ، وهو يربطُ ، بمهارةٍ ، بين نِعَمِ الله المتمثِّلةِ في جمَالِ الطَّبيعةِ ونعمةِ الرِّسالةِ[60] :

شُكْراً لِمَنْ بَرَأَ الوُجُـودَ بِجُودِهِ فَتَنى إِلَيْهِ الْكُلُّ وَجْـهَ الْمُفْلِسِ

رَفَعَ السَّمَا سَقَفاً يَـرُوقُ رُوَاؤُهُ وَدَحـا بَسِيطَ الأَرْضِ أَوْثَرَ مَجْلِـسِ

([51]) المعشرات قصائد تنظم ، في الغالب، على بحر الطويل ، في الزهد والمواعظ والمدائح النبوية ، أما المخمسات فهي قصائد ثم تخمس في خمسة أشطر حيث تتفق في القافية ،

([52]) يُنظر أمثلةَ عَلَى ذلك في: ابن الخطيب، **ديوانه**، الصفحات: 240 ،241 ، 244 .

([53]) يُنظر أمثلةَ عَلَى ذلك في: ابن الخطيب، **ديوانه**، ص 118 .

([54]) ابن الخطيب، **ديوانه**، ص 244 .

([55]) يُنظر: ابن الأحمر، **نثير الجُمَان**، ص 236 .

([56]) يُنظر أمثلةَ عَلَى ذلك في: ابن الخطيب، **نفاضة الجراب** 301/3، **وديوانه**، ص 10 . 19.

([57]) أبو العباس أحمد بن القاضي ، **جذوة الاقتباس** (مطبعة دار المنصور، الرِّباط ، 1973م)93/1 . وأبو بكر السَّعيد هو ابن أبي عنان المرِّينيِّ، تولَّى الحكم سنة واحدة ما بين 759 و 760 هـ باستبداد الوزير حسن بن عمر ، يُنظر:ابن خلدون ، **العبر** 7/ 354 .

([58]) أحمد بن علي بن محمَّد بن علي بن محمَّد بن خاتمة الأنصاريّ، من أهل ألمريَّة، يكنَّى أبا جعفر، ويُعرف بابن خاتمة، ت770هـ ، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 239/1–259، **والكتيبة** ، ص 239، وابن الأحمر، **ونثير الجُمَان**، ص 176، له ديوان شعر تحقيق د. محمَّد رضوان الدَّاية(وزارة الثَّقافة،ط1 ، دمشق 1978م).

([59]) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب** 3/ 319 .

([60]) ابن خاتمة الأنصاري: **ديوانه**، ص 194 . 195 . الحندس : الظُّلمة

حَتَّى إِذَا انْتَظَمَ الوُجُودُ بِنِسْبَةٍ ... وَكَسَاهُ ثَوْبَيْ نُورِهِ وَالحِنْدِسِ
وَاسْتَكْمَلَتْ كلُّ النُّفُوسِ كَمَا لَهَا ... شَفَعَ العَطَايَا بِالعَطَاءِ الأَنْفَسِ
بِأَجَلِّ هَادٍ لِلخَلاَئِقِ مُرْشِدٍ ... وَأَتَمِّ نُورٍ لِلخَلاَئِقِ مُقْبِسِ

وَمثْلُ هذا يكونُ مَدخلاً للمديحِ النَّبويِّ الَّذِي لا يتَّسمُ بالطُّولِ وَلا يغرقُ في التَّفاصيلِ السَّرديَّةِ الَّتِي كانَ الشُّعراء يحَاكونَهَا في هذه الفترةِ الزَّمنيةِ [61].

في وقتٍ نجدُ أبا جعفر بن جُزيّ [62]، يَنهجُ في المَدَائحِ النَّبويَّةِ مَنْهجاً شبيهاً بالجيلِ الأوَّلِ ، حين ضمَّن أعجازَ بعض قصائدِهِ المدحيَّةِ، أشطارَ لامية امرئ القيس[63].

أمَّا شعراءُ الجيلِ الثَّالثِ فَقَد استمروا عَلَى نظمِ المولَديَّات، وَكانَ من أبرزِ أعلامِهِ ابنُ زُمرك، الَّذِي حَرصَ عَلَى تدوينِ المولَديَّات المنظومةِ في عصرِهِ، فَقَدْ وقفنَا له عندَ المَقَّري عَلَى أربعةِ نصوصٍ[64] يستنجزُ فيها كتَّابَ المغرب قصائدهم المولاديَّة، منها قوله[65]:

أَيَا عِلْيَةَ الكُتَّابِ دَعْوةَ مُنْصِفٍ ... عَلَيْكُمْ بِكُمْ في مَقطْعِ الحَقِّ يَستَعْدِي
سَمَحْتُمْ بِنَظْمِ الدُّرِّ فِي لُبَّةِ العُلاَ ... فَكَم رَاقَ مِنْ سِمْطٍ هُنَاكَ وَمِنْ عِقْدِ
فَمَا ضَرَّكُمْ أَنْ تَسْمَحُوا لِي بِكَتْبِهَا ... فَتَسْتَنْجِزُوا شُكْرِي وَتَسْتَوْجِبُوا حَمْدِي

كَمَا عُرفَ بنظمِه المَوْلِدِيَّات، وإنْ لم نقفْ إلاَّ عَلَى أربعةٍ كاملةٍ، جمعَ فيهن بين مدحِ الرَّسولِ ﷺ وَمدحِ الأمير[66]. وابن زُمرك تفوَّقَ عَلَى أستاذه ابن الخطيب في رقَّةِ الأسلوبِ وسهولتِهِ وتدفُّقه، ولكنه، في الوقتِ ذاته، اقتفى أثرَهُ في بعضِ المعاني، كقولِهِ[67]:

أَثْنَى عَلَيْكَ بِكُتْبِهِ مَنْ أَنْزَلَ الـ ... ـقُرْآنَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلاَ
فَإِذَا البَلِيغُ يَرُومُ مَدْحَكَ جَاهِداً ... أَضْحَى حُسَامُ لِسَانِهِ مَفْلُولاَ

([61]) يُنظر أمثلة من مدائحه النَّبويَّة في: ابن خاتمة الأنصاري، **ديوانه**،الصفحات: 16، 20، 195.

([62]) أحمد بن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله بن يحيى بن عبد الرَّحمن بن يوسف بن سعيد بن جُزيّ الكلبي، من أهل غرناطة، ويُعرف بابن جُزيّ، له كتب بالفقه، وله رجزٌ بالفرائض، ت785هـ، يُنظر:ابن الخطيب: **الإحاطة** 157/1، **والكتيبة**، ص 138 والمَقَّري: **الأزهار**187/2.

([63]) ابن الخطيب: **الكتيبة**، ص 138،142، و**الإحاطة** 159/1، والمَقَّري، **النَّفح** 518/5 .

([64]) يُنظر: المَقَّري، **الأزهار** 173/2 – 175.

([65]) المَقَّري: **الأزهار** 2/ 173 وما بعدها ، وابن زُمرك، **ديوانه**، ص34.

([66]) يُنظر: المَقَّري، **الأزهار** 42/2، 46،61، 93، 96 .

([67]) المَقَّري: **الأزهار** 2/ 99 . 100، وابن زُمرك، **ديوانه**، ص84.

وَيُمكن أن نعدَّ إسماعيلَ ابنَ الأحمرِ[68] من أبنَاءِ هذا الجيلِ الثَّالثِ، عَلَى الرَّغمِ مِنْ أنَّه عاشَ فترةً طويلةً من حياتِهِ في المغربِ ، فإنَّه أندلسيُّ الأصلِ وَالانتماءِ ، فَقَد مالَ إلى المِلادِيَّاتِ، وَبَقِي من ميلاديَّاته اثنتان[69]، يقلاَّنِ في مستوَاهما الفنِّيِّ عن مُسْتَوى المَدِيحِ عند ابن زُمرك، فسَرْدُ المُعْجِزَاتِ زادَهما نثريةً أثَّرتْ في الأسلُوبِ.

ونعدُّ أبا القاسم مُحَمَّداً بن إبراهيم التَّجيبيِّ من هذه المجموعةِ ، فَقد تركَ ميلاديَّةً سَارتْ عَلَى منهجِ المَدَائح التَّقليديَّةِ في أفكارها، من شوقٍ إلى الأمكنةِ المقدَّسة، وحديثٍ عن المعجزاتِ ، وإشادةٍ بإحياء الأميرِ ليلة الميلادِ، ليكونَ ذلك فرصةً لمدحِه. غيرَ أنَّ ما يميِّزُ هذه عَلَى ميلاديَّات ابن زُمرك ، هو قلَّة أبياتِ مدحِ الأميرِ بجانبِ المَدِيحِ النَّبويِّ[70]، مُقَارنةً بابنِ زُمرك الَّذِي كانَ يطيلُ المدحَ ، عَلَى الرَّغمِ من تنبيهِ سلطانهِ إلى عدمِ إرسَالِ العِنَانِ بمدحِهِ في المِيلادِيَّات ؛ تَوقِيراً لجَانبِ الرَّسولِ ﷺعَلَى حدِّ تعبيرِ يوسف الثَّالث [71] .

وَبَعْد هذا العَرضِ السَّريعِ لأعلامِ شعرِ المَدَائحِ النَّبويَّة على عهدِ بني الأحمرِ لا بدَّ أنْ نُوردَ أسماء أخرى كثيرةً ، كَانت لهَا فعاليتُهَا في هذا الفنِّ ، كابنِ عطيَّة المُحَاربيِّ[72]، وخَالدٍ البلويِّ[73]، وابنِ شبرين[74]، وَأبي القَاسمِ البرجِيِّ[75]، وغيرهم ...

ثالثاً : أنوَاعُ المَدَائحِ النَّبَويّةِ:

تنوَّعتِ المَدَائحُ النَّبَويّةُ المنظومةُ في عهدِ مملكةِ غرناطة ، منْ حَيثُ الشَّكلِ ، إلى قصَائدَ، وَمُقَطَّعاتٍ، وَمعشَرَاتٍ ، وَمُسَمَّطَاتٍ، أمَّا مِنْ ناحيةِ المضمونِ، فهناكَ المَدَائحُ الصِّرفةُ ، وَالمَوْلِدِيَّاتُ ، وَالبَدِيعِيَّاتُ ، وَيتَّصفُ كُلُّ نَوْعٍ منهَا بِخَصَائصِ تُميزُهُ عن غيرِهِ .

فَالمَدَائح الصِّرفةُ هي الَّتِي تَحتوي كُلَّ المَدَائحِ النَّبَويَّةِ الَّتِي تَذكرُ مآثرَ الرَّسُولِ ﷺ وَلا يشُركُ أحدٌ منَ المَمدُوحين معهُ ، وَيَشملُ ذلك مُختلفَ الأشْكَالِ المعرُوفةِ لِلمدَائحِ النَّبَويَّةِ ، باستثناءِ المَوْلِدِيَّاتِ الَّتِي يُشَاركُه فيهَا مدحُ الأميرِ، وَالبَدِيعِيَّات الَّتِي يُقصدُ منهَا تتبعَ المحسِّناتِ البديعيَّة.

أمَّا المَوْلِدِيَّاتُ فهي أشعارٌ مدحيَّةٌ تُلقَى احتفاءً بليلةِ المَوْلِدِ النَّبَويِّ، وتحتوي عَلَى مدحِ الرَّسُولِﷺ ومدحِ الملكِ أو الأميرِ، الَّذِي ينتظمُ حفلُ المَوْلِدِ بعنايته أو حضوره أو عهده، وَقَدْ عرَّفهَا ابنُ الخطيبِ بأنَّها (القصائدُ المنظومةُ في مَدحِ رسُولِ اللهِ ﷺ والإشادةِ بميلاده، وَذِكْرِ مُعجزاتِهِ، ثُمَّ التَّخلُّصِ إلى مدحِ السُّلطانِ وذكرِ خلاله، وإطراء تحفِّيه بهذه الدَّعوة)[76] .

([68]) إسماعيل بن يوسف بن محمَّد بن خميس النَّصريّ الخزرجيّ المعروف بابن الأحمر، يكنَّى أبا الوليد، خلَّف عدداً من المصنفات، ت807هـ، يُنظر :ابن الأحمر، **نثير فرائدالجُمَان**،ص377،و**نثيرالجُمَان**،ص19.

([69]) يُنظر: ابن الأحمر: **نثير فرائد الجُمَان**، الصَّفحات: 378 ، 382 ، 383 ، 386.

([70]) يمكن المقارنة بين النَّصَّين في:ابن الخطيب، **الكتيبة** ، ص 304303 والمَقَّري، **الأزهار** 51/2 .55.

([71]) يُنظر: المَقَّري، **الأزهار** 51/2.

([72]) يُنظر أنموذجاً من مدائحه في: ابن الخطيب، **الإحاطة**3/ 561، والمَقَّري، **النَّفح** 7/ 285 .

([73]) يُنظر: ابن الخطيب، **الكتيبة**، ص 135.

([74]) يُنظر: ابن الخطيب، **الكتيبة**، ص 163.

([75]) يُنظر: ابن الخطيب، **الكتيبة**، ص 252 .

([76]) يُنظر: ابن الخطيب، **نفاضة الجراب** 3/ 279.

وَتتضمَّنُ المَوْلِدِيَّاتُ عناصرَ رئيسة، منها: المقدِّمةُ ، وَمَدْحُ الرَّسُول ، وَمَدْحُ السُّلطانِ ، وَالتَّوسُّلُ أو المناجاةُ ، وَالخاتمةُ ، وَيُمكن أنْ تُستفتحَ المُوْلِدِيَّةُ بمدحِ الرَّسُولﷺ مباشرةً ، فَتَسْتَغْنِي عن أنواعِ التَّقديمِ ، الَّذِي قَدْ يكونُ وقوفاً عَلَى الأطلالِ ، أو نَسِيباً مُلتَزِماً حدُودَ اللَّياقةِ وَالاحتشامِ.

وَلكنَّنا وَقَفْنَا فِي نفَاضةِ الجرَابِ على معنىً طريفٍ للوقوفِ الطَّللي المبَالغِ فيه فِي المَوْلِدِيَّات ، حيثُ صَارَ الوَاقفُ على الطَّلِ طللاً آخرَ، إلى جِوَارِ الطَّلِ الأوَّلِ ؛ وذلك للتَّعبيرِ عَنْ عمقِ ارتبَاطِ الشَّاعرِ بتلك الأمكِنةِ وَأهلِهَا ، وَهذا مَا وَجدنَاه في شعرِ ابن سودة الطِّبيبِ[77]، إذ قالَ[78] :

وَلَقَدْ أَقَمْتُ عَلَى الرُّسُومِ كَـأَنَّني ... طَلَلٌ تَقَـادَمَ رَسْمُهُ الْمَسْـؤُولُ

أَسْتَفْهِمُ الأَظْعَـانَ عَنْ رُكْبَانِهَا ... وَأُسَائِلُ العَرَصَاتِ وَهْيَ طُلُـولُ

وَالبَدِيعِيَّاتُ مَدَائحُ نبويَّةٌ تتبعُ – إلى جَانبِ المَدِيح النَّبويِّ–المُحسّناتِ البديعيَّةَ ، إذ تَشتَمِلُ كُلَّ أبياتِ القصيدةِ تقريباً، وهي تُنظمُ عَلَى بحرِ البسيطِ ، وَقافيةِ الميمِ المَكْسُورةِ ، وَتَمْتَازُ بطولِهَا الَّذِي يَسْتَوعبُ أنوَاعَ البدِيعِ في غرضِ المَدِيح النَّبَويِّ .

وَفِي عصرِ بني الأحمرِ وَقَفْنَا على بديعيَّةِ ابن جابرٍ الهواريِّ الأندلسِّ المسمَّاة "بالحلَّة السِّيرا في مدحِ خيرِ الوَرَى" وَقد أخذتْ أهمِّيتها في الرِّيادةِ الَّتِي يتنافسُ فيها ابنُ جابرٍ، وصفيُّ الدِّين الحلّي، في هذا المجَالِ[79]، وابنُ جابرٍ يبدأُ بديعيتَه بالموضوعِ مباشرة [80]:

بِطِيبَةَ انْزِلْ وَيَمِّمْ سَيِّدَ الأُمَمِ ... وَانْشُرْ لَهُ المَدْحَ وَانْثُرْ أَطْيَبَ الكَلِمِ

وابْذُلْ دُمُوعَكَ وَاعْذُلْ كُلَّ مُصْطَبِرٍ ... وَالحَقْ بِمَنْ سَارَ وَالْحَظْ مَا عَلَى العَلَمِ

وَمِنْ ثُمَّ يميلُ إلى صِفَاتِ الرَّسُولِ ﷺ، مُسْتَعيناً بسردِ بعضِ وَقَائعِ السِّيرةِ، مُختتماً القصيدةَ بالصَّلاةِ عليه، وعلى صحابتِهِ الَّذِين سمَّى منهم الخلفاءَ الرَّاشدين وحمزةَ والعبَّاسَ ، وَأجملَ سائرهم في قوله[81]:

صَحْبُ الرَّسُول هُمُ سُؤلِي وَجُودُهَمُ ... أَرْجُو، وَأَنْجُو مِنَ البَلْوَى بِبَالِهِمِ

أمَّا الفروقُ بين الأنوَاعِ الثَّلاثةِ "المدائحُ الصِّرفة والمولديات والبديعيات"، فَتَكمنُ في أنَّ التَّغزُّلَ في المَدَائحِ النَّبَويَّةِ مقيَّدٌ بضَّوابط أخلاقيَّةٍ، ملتزمٌ بالاحتشامِ بِذِكْرِ الأمكنةِ الحِجَازيَّة ، وَلكنَّ المقدِّماتِ الغزليَّةَ في المَوْلِدِيَّاتِ أقلُّ التزاماً بهذِهِ الضَّوابطِ ، إذ يمكن للشَّاعرِ أنْ يتجاوزَها، ولكن بصورةٍ محدودةٍ ، بحيث لا يبلغُ مبلغَ التَّماجنِ والغزلِ الصَّريحِ ، فَالهدفُ مِنْ تلك المقدِّماتِ، كَمَا يقولُ ابنُ الخطيب ، هُوَ تصديرُ المدحِ (بِالنَّسِيبِ لِبَسْطِ الخَوَاطِرِ النَّفْسَانِيَّةِ)[82].

([77]) محمَّد بن محمَّد بن سودة المُرِّي، يكنَّى أبا القاسم ، من نبهاء بيوت الأندلس، قرأ الطِّبَّ ، وكان طبيب الدَّار السُّلطانية، يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 168/3.

([78]) يُنظر: ابن الخطيب، **نفاضة الجراب** 3/ 279 .

([79]) يُنظر: د.علي أبو زيد، **البَدِيعِيَّات في الأدب العربي** ، ص 55 وما بعدها .

([80]) ابن جابر الهواري: **الحلة السِّيرا في مدح خير الورى**، تحقيق د.علي أبو زيد(عالم الكتب ، بيروت ،1985م) ص 161، ود. أحمد الهيب، شعر ابن جابر الهواريّ، ص134 وما بعدها.

([81]) ابن جابر الهواري : **الحلَّة السِّيرا في مدح خير الورى**، ص177.

([82]) ابن الخطيب: **الإحاطة** 381/4.

وَمع هذا، فَقَدْ وَجدنَا ابنَ زُمرك في مقدِّمةٍ غزليَّةٍ لإحدى مُولديَّاته كانَ أكثرَ جرأةً في الخرُوجِ عَلَى هذه القيودِ، يقول [83]:

لَوْ كُنْتُ أُعْطَى مِنْ لِقَائِكَ سُولاَ لَمْ أتَّخِذْ بَرْقَ الْغَمَامِ رَسُوْلاَ

أو كُنْتُ أَبْلُغُ مِنْ قَبُولِكَ مَأْمَلِي لَمْ أُودِعِ الشَّكْوَى صَباً وَقَبُوْلا

إلى أن يقولَ :

وَصَقَلْتُ لِلحَسْنَاءِ صَفْوَ مَوَدتي لَمَّا اجْتَلَيْتُ العَارِضَ المَصْقُولاَ

ثُمَّ انْتَشَيْتُ وَقَدْ تَعَاطَيْتُ الهَوَى رِيماً أَغَرَّ وَجُؤْذُراً مَكْحُولاَ

أمَّا الفارقُ الأكثرُ وضوحاً وتميُّزاً بين المدحةِ النَّبَويَّةِ والمُوْلِديَّة فهو حضورُ شخصيَّةِ الممدوحِ في المَوْلِديَّات، وهذا الحضورّ يكون–غالباً– في الجزءِ الأخيرِ من المُوْلِديَّة، وقد يسبق ذلك.

وَالمُوْلِديَّة ذاتُ المقدَّمةِ تحتاجُ إلى تخلُّصين ، الأوَّلُ من النَّسيبِ إلى المَدِيحِ النَّبَويِّ ، وَالثَّاني منه إلى مَدْحِ الأميرِ، وَيجبُ أن يكونَ تخلُّصاً مُحْكَماً ؛ كأن ينتقلُ من مدحِ الرَّسُولِﷺ إلى مدحِ أنصارِه ، ليكونَ في ذلك مناسبةً لذكرِ بني الأحمرِ، الَّذِين ينتمون إلى الصَّحابي الأنصاريِّ سعدِ بن عبَادة ، وَبتوثيقِ هذه الصِّلاتِ تَتَقَاربُ أجزاءُ الميلاديَّةِ وتتلاحمُ ، بصورةٍ تُحافظُ عَلَى وِحْدَتها العضويَّةِ ، يقولُ ابنُ الحاج النُّميريُّ[84]:

وَيَا لَكَ مِنْ عَاقِبٍ حَاشِرٍ يُطِيلُ بِحَبْلِ الإلهِ اعْتِصَامَا

لأنْصارِهِ الفَخْرُ جَدَّ التِحَافاً بِزُهْرِ النُّجُومِ وَجَلَّ الْتِحَامَا

بِأَنْدَلُسٍ أَثَّلُوا دَوْلَةً لأَرْكَانِهَا السَّعْدُ وَالَى اسْتِلاَماَ

بَنُو نَصْرٍ النَّاصِرُونَ الأُلَى مِنَ الكَافِرِينَ أَطَالُوا انْتِقَامَ

فَالعَنَاصرُ الثَّلاثة "الرَّسُولُ، الأنصارُ، بنو نصر" هم محورُ المدحِ ؛ لذلك يُحاولُ الشَّاعرُ أن يطيلَ ما شاءَ له أن يطيلَ، لينتقلَ إلى الممدُوحِ، دونما انقطاعٍ في أفكارِ القصيدةِ ، أو خلخلٍ في البناءِ المنطقي لهَا .

وَختَامُ المَدَائحِ النَّبَويَّةِ يكونُ بالصَّلاة وَالتَّسليم عَلَى النَّبِيِّ وَآله وصحبِهِ ، وَهُوَ رمزٌ بَارزٌ في المَدَائح ، وَهذا الأمرُ كَانَ ملزماً لدى بعضِ الشُّعرَاءِ المكثرين ، كابنِ جابرٍ الهواريِّ ، الَّذي ارتَقَى بمدائحِهِ إلى مستوى عالٍ بالالتزامِ بذلك ، في حينٍ يغلبُ على المَوْلِديَّاتِ الختامُ بالدُّعاءِ للممدوحِ ؛ لأنَّ القسمَ الأخيرَ يدورُ حولَ مناقبِهِ ، فنَاسبَ أنْ يُختمَ بذكره ، وَمِنْ ذلك قولُ أبي القَاسمِ بن قطبة [85] من مُوْلِدِيَّة قيلت في ربيع الأوَّل من سنة 764هـ في حضرةِ الغنيِّ بالله ، وَكانتْ

([83]) المَقَّري: **النَّفح** 238/7، و**الأزهار** 96/2، وابن زُمرك ، **ديوانه**، ص 87.

([84]) ابن الخطيب: **نفاضة الجراب** 304/3 .

([85]) محمَّد بن محمَّد بن أحمد قطبة الدَّوسي، من أهل غرناطة، يكنَّى أبا القاسم، مدحه ابن الخطيب في الإحاطة وذمَّه في الكتيبة، كان حسن الخطِّ، يُنظر:ابن الخطيب، **الإحاطة** 250/2، **والكتيبة** ، ص272.

هذه المُوْلِدِيَّةُ قَدْ أُنْشِدَتْ ضِمْنَ الاحتفَالِ بالمَوْلِدِ النَّبَويِّ لتلك السَّنةِ، مع ثماني عشرة قصيدةٍ لأشهرِ شعراءِ العَصرِ، تلتزم معظمُهَا المنهجَ نفسه[86]:

أَعْطَـاكَ رَبُّكَ كُلَّ مَـا أَمَّلْتَــهُ وَحَبَـاكَ مِنْ رُتَبِ العُـلاَ بِالأَرْفَـعِ

وَمِنْ حيثُ الطُّولِ فإنَّ المولَديَّات أطولُ منَ المَدَائح الصِّرفةِ ، وَأكثرُ عدداً ، إذا مَا استثنينا نِتَاجَ مُحَمَّد ابنِ جابرٍ الهواريِّ المعروفِ بمدائحِهِ الطَّويلةِ ، وَهذا الأمرُ يعودُ لسببين ، الأوَّل: حماسةُ رجالِ الدَّولةِ الأنْدَلُسيَّةِ وَتشجيعِهم للتَّأليفِ في المَوْلِدِيَّات ، مِنْ خلالِ احتفَائهم فِي مُنَاسباتِ المَوْلِدِ النَّبَويِّ[87]، وَقَدْ كان إلقاؤها في القصرِ بين حفلٍ كبيرٍ من الأدباءِ والنُّقاد ومؤرخي الأدبِ مدعاةً للعنايةِ والحفظِ والتَّدوين والفخرِ، وما رسائلُ ابن زُمرك إلى الكتَّاب يَسْتَنجزُهُم مولَديَّاتهم بقولِهِ إلاَّ الدليلُ الأوضحُ لذلك[88]:

أَكَتِيبَة الكُتَّابِ أُيِّدَ جَمْعُكُمْ بِعِنَايَةِ المَوْلَى الخَلِيفَةِ أَحْمَدِ

فَلْتَسْمَحُوا لِي بِالقَصَائِدِ عَاجِلاً وَلْتُبْلِغُوا مِمَّا أُؤَمِّلُ مَقْصِدِي

وَالسَّبب الثَّاني يعودُ إلى عدمِ إمكانيةِ تخصيصِ قصائد طويلة لغرضِ المديحِ النَّبَويِّ، دون الوقوعِ في التِّكرارِ والرَّتابةِ، كون مصادرُ هذه المَدَائح من السِّيرة متداولةً معروفةً ؛ ولذا فإنَّ الشَّاعرَ يَتَهيَّبُ بتطويله أنْ يقعَ في الإملالِ والتِّكرار، وقد تناولَ ابنُ خلدون هذه القَضيَّة فقال:إنَّ شعر(الرَبَّانِيَّاتِ وَالنَّبَويَّاتِ قَلِيلُ الإجادَةِ فِي الغَالِبِ، وَلاَ يُحْذِقُ فِيهِ إلاَّ الفُحُولُ، وَفِي القَلِيلِ عَلَى العَشْرِ؛ لأنَّ مَعَانِيَهَا مُتَدَاوَلَةٌ بَيْنَ الجُمْهُورِ، فَتَصِيرُ مُبْتَذَلَةً لِذَلِكَ)[89].

وَالدَّليلُ الآخر أنَّ أبا القاسم بن جُزيّ[90] علَّل سكوته عَن النَّظمِ في غَرَضِ المدحِ النَّبَويِّ بقوله[91] :

أَرُومُ امْتِدَاحَ المُصْطَفَى فَيَصُدُّنِي قُصُورِيَ عَنْ إِدْرَاكِ تِلْكَ المَنَاقِبِ

فَأَسْكُتُ عَنْهُ هَيْبَةً وَتَأَدُّباً وَخَوْفاً وَإِعْظَاماً لأَرْفَعِ جَانِبِ

وَرُبَّ سُكُوتٍ كَانَ فِيهِ بَلاَغَةٌ وَرُبَّ كَـلاَمٍ فِيـهِ عَتبٌ لِعَاتِـبِ

في وقتٍ نجدُ المَوْلِدِيَّات أرحبَ آفاقاً من المَدَائحِ الصِّرفةِ وَالبَدِيعِيَّات ؛ لقدرتها عَلَى احتواءِ أفكارٍ عامَّةٍ وجزئيَّةٍ كثيرةٍ ، تتعلَّقُ بالمَدِيح النَّبَويِّ وَمدحِ الأميرِ، فهذا الغرضُ الأخيرُ بأجزائه المتنوِّعةِ يجعلُ المُوْلِدِيَّةَ أرحبَ استيعاباً لإمكانات الشِّعراء ، وَأكثرَ قبولاً لنتائجِ أخيلتهم.

خاتمة:

([86]) ابن الخطيب: **نفاضة الجراب** 317/3.

([87]) يُنظر تصاريف الاحتفال بالمولدِ النَّبَويّ بشكلٍ موسَّعٍ في: المَقَّري، **الأزهار** 243/1 ، وابن الخطيب**الإحاطة** 2/ 295، و**نفاضة الجراب** 3/ 291 وما بعدها .

([88]) المَقَّري: **الأزهار** 2/ 173، وابن زُمرك ، **ديوانه**، ص38.

([89]) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون** (المكتبة التجارية ، القاهرة، د. ت) ص477 .

([90]) محمَّد بن محمَّد بن أحمد بن محمَّد بن عبد الله بن يحيى بن أبي بكر بن عبد الرَّحمن بن يوسف بن سعيد بن جُزيّ الكلبي الغرناطيّ، من أهالي غرناطة وأعيانها، يكنَّى أبا عبد الله ، ت758هـ ،يُنظر: ابن الخطيب،**الإحاطة** 256/2،

([91]) ابن الخطيب: **الكتيبة** ، ص 48 .

يتَّضحُ لنا – مِمَّا سبقَ ذكرهُ– أنَّ شِعْرَ المَدِيحِ النَّبويِّ في عهدِ بني الأحمرِ ، وَفي مملكةِ غرناطة شِعرٌ صَادقٌ بعيدٌ عن التَّزلُّفِ والتَّكسُّب ، يَجمعُ بينَ الدِّلالةِ الحرفيَّةِ الحسِّيَّةِ وَالدِّلالةِ الصُّوفيَّةِ الرُّوحانيَّةِ.

كَمَا يندرجُ هذا الشِّعرُ ضمنَ الرُّؤيةِ الدِّينيَّةِ الإسلاميَّةِ ، في ظِلِّ وَاقعٍ سياسيٍّ وَدينيٍّ مُرعبٍ لِلمسلمِ، وَيستمدُّ لغتَه وَبَيَانَه وإيقاعَه وَصورَه وأساليبَه من التُّرَاثِ الشِّعريِّ القديمِ ؛ مِمَّا أسقطَ هذا الشِّعرَ ، في كثيرٍ من الأحيانِ ، في التِّكرَارِ وَالابتذالِ وَالاجترار؛ بسببِ المعارضةِ والتَّأثرِ بالشِّعرِ القديمِ ، صياغةً ودلالةً ومقصديةً.

وَعَلَى الرَّغمِ مِنْ ذلك ، فَقَدْ استطَاعَ بَعضُ الشُّعراءِ أن يتفوَّقُوا في شعرِ المَدِيحِ النَّبويَّ ، كَمَا عند ابنِ جابرٍ الهواريِّ وَالسَّاحليِّ وَالنُّميريِّ وَابنِ الخطيبِ وابنِ الجيَّابِ وابنِ خاتمةَ وَغيرهم...

وفي النِّهايةِ نؤكِّدُ أنَّ اهتمامَ الأنْدَلُسيِّين–والغرناطيِّين منهم بوجهٍ خاصٍّ– لمْ يقفْ في تعبيرِهم عن الحبِّ الجَارفِ للنَّبيِّ ﷺ وَالتَّوقِ الدَّائم لزيارةِ قبرِهِ عندَ حدودِ الشِّعرِ، فَوَجدنَاهم يَبْتَدِعُون فنًّا نَثرِيًّا ، يبْدُو أنَّهم أوَّلُ مَنْ كَتبوا فيه، ثمَّ أصبحَ بعدَ ذلك تقليداً شَائعاً ، هُوَ الرَّسائلُ الَّتِي تُوجَّهُ إلى قبرِ الرَّسُولِ ﷺ، وَربَّما كَانَ أوَّلَ من فتحَ هذا البابَ الوزيرُ الكاتبُ أبو القاسمِ مُحَمَّد بن عبد الله بن الجدِّ الإشبيلي[92] عَلَى لسانِ رجلٍ صدرَ من بيتِ اللهِ الحَرَامِ بعدَ زيارةِ قبرِ النَّبِيِّ، وهي في التَّوسُّلِ لهُ وطلبِ الشَّفاعةِ منه .

المراجع:

(92) يُنظر: ابن الخطيب، **الإحاطة** 4/ 265.

القرآن الكريم
* أحمد بابا التبكتي: نيل الابتهاج بتطريز الدَّيباج، إشراف وتقديم عبد الحميد الهرامة (كلية الدعوة الإسلامية، طرابس، ليبيا ،1984م)ص391.
* أحمد بن علي، ابن خاتمة الأنصاريّ: ديوانه تحقيق:د. محمَّد رضوان الدَّاية(وزارة الثَّقافة، دمشق،1978م) ص16-20-194-195.
* أحمد بن علي المَقَّريزي: المواعظ والاعتبار بذكرِ الخطط والأثار(القاهرة، ط2، 1987م)ج2/389.
* أحمد بن القاضي أبو العباس: جذوة الاقتباس (مطبعة دار المنصور، الرِّباط ،1973م) ج1/93.
* إسماعيل بن يوسف ، ابن الأحمر: نثير الجمان في شعر من نظمني وإيَّاه الزَّمان-كتاب أعلام المغرب والأندلس في القرن الثَّامن- تحقيق د. محمَّد رضوان الدَّاية(مؤسسة الرِّسالة بيروت، ط1 ، 1976م)ص19-176-186-233-236.
. نثير فرائد الجمان في نظم شعراء الزَّمان، تحقيق : د.محمَّد رضوان الدَّاية (دارالثَّقافة، بيروت 1967م)ص242-308-313-377-378-382-383-386.
* زكي مبارك د.: التَّصوُّف الإسلامي في الأدب والأخلاق (مطبعة الرِّسالة، القاهرة 1983م)ج1/280.
- المَدَائح النَّبويَّة في الأدب العربي (مكتبة الشَّرق الجديد، ط2، دمشق 1997م)ص17-141-171.
* شهاب الدِّين بن أحمد بن محمد المَقَّري: أزهار الرِّياض في أخبار القاضي عياض ،تحقيق: مصطفى السَّقا وإبراهيم الإبياري (صندوق إحياء التُّراث، الرِّباط، 1399هـ)ج1/243. ج2/42 -46-51-55-60-61-74-93-96-99-100-173-175-374-375.
. نفح الطِّيب في غصن الأندلس الرَّطيب، تحقيق د.إحسان عباس (دار صادر، بيروت 2004 م) 2/104 ج5/172-510-511-518. ج6/514. ج7/176-238-285-302-306-516-517.
* عبد الرحمن ابن خلدون: العبر وديوان المبتدأ والخبر، أو"تاريخ ابن خلدون" (مطبعة بولاق،القاهرة،1284هـ) ج7/81-452-454.
- مقدمة ابن خلدون (المكتبة التِّجارية ، القاهرة، د.ت)ص477.
* علي أبو زيد د.: البديعيات في الأدب العربي(عالم الكتاب، بيروت، 1983م)ص55.
* علي بن محمد، ابن الجياب: ديوانه مخطوط خاص غير محقق (من دار الكتب المصرية تحت رقم 2424)7-52-80 -119-120.
* لسان الدين محمد بن عبد الله ، ابن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة،تحقيق: محمَّد عبد الله عنان (مكتبة الخانجي،ط2، القاهرة، 1973م) ج1/157-159-220-239-259-329-342. ج2/250-256-286-293-295 -300-330-433-434.ج3/168-239-443. ج4/125-253-265-376-389-438.
. ديوانه، تحقيق: د. محمَّد مفتاح(دار الثَّقافة، بيروت ، 1989م)ص10-19-118-198-225-229-240-241-244-531.
. الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلسِ من شعراء المائة الثَّامنة، تحقيق : د. إحسان عباس (دار الثَّقافة، بيروت،1963م) ص45-67-88-119-135-138-142-152-163-239-250-272-302-303-305.

. نفاضة الجرَاب في علالة الاغتراب، تحقيق فاغية السَّعدية، (مطبعة النَّجاح الجديدة، ط2،الدَّار البيضاء، 1982م)ج3/279-291-301-304-317-319.

* محمد بن أحمد بن جابر الهواري: الحلة السِّيرا في مدح خير الورى، تحقيق: د.علي أبو زيد (بيروت،1985م)ص161-177

. شعر ابن جابر الأندلسي، د. أحمد فوزي الهيب،(دار سعد الدين ، دمشق، ط1، 2007م)ص134-138.

* محمَّد بن شريفة د:البسطي أخر شعراء الأندلس، (دار الغرب الإسلامي،بيروت،ط1985،1م)ص16-17

* محمد بن يوسف، ابن زُمرك: ديوانه، تحقيق : د.محمَّد توفيق النَّيفر (دار المغرب الإسلامي، ط1، المغرب 1997م)ص34 -38-84-86-87-133.

* محمود علي مكي د.: المَدَائح النَّبويَّة (الشَّركة العالمية للنَّشر، القاهرة، 1990م)ص125.